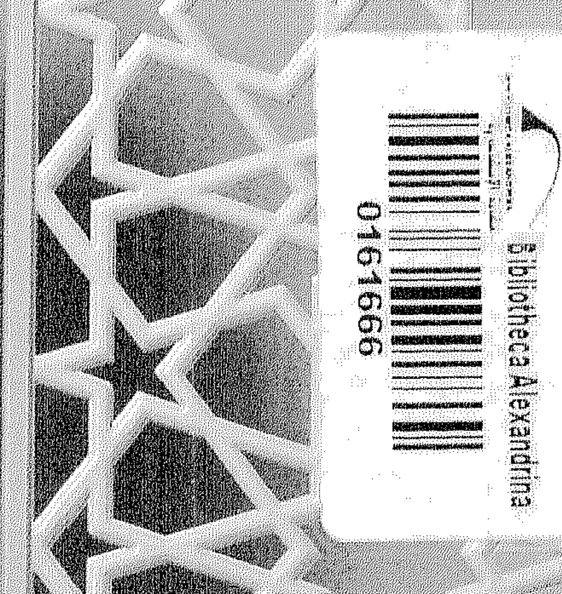
مأمون غريب

رابعة العدوية

فى محراب الحب الإلهى





مأمون غريب

رابعة العدوية

فى محراب الحب الإلهى



الـكـتـاب : رابعة العدوية فى محراب الحب الإلهى
المؤلـف : أ/ مأمون غريب
رقم الإيداع : ١٧٥٦٩
تاريخ النشر : ٢٠٠٠
الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 215 - 470 - 6

الناشـر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة
الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤
التوزيع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقى الفجالة – القاهرة
ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩
إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الـلَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

صَدَقَ اللَّهُ العَظِيمُ

(سورة يونس، الآية ٦٢ - ٦٣)

مقدمة

عندما كنت فى سن صغيرة .. وسمعت عن تصوف رابعة العدوية، وحبها لله،

بعد أن عاشت حياتها كجارية تعزف الناى، وتغنى .. بما يرضى سيدها الذى اشتراها ثم كيف انسلخت عن هذه الحياة لتتوجه بكل كيانها وحبها لله تعالى .. كنت عندما أسمع ذلك أشعر بسعادة غامرة تملأ كيانى كله ..

وحتى عندما شاهدت الأفلام التي تتناول حياة هذه السيدة ، كان خيالى يخترق حجب الماضى .. أتصور هذه السيدة التى عاشت حياتها الأولى فى لهو وبعد عن قيم الدين، فإذا ما مستها هذه الشرارة المقدسة .. شرارة الإغاثة لنتجه إلى نور الهداية .. فإذا بها تنقاد نحو هذا النور .. وتغرق فيه .. وتشدو بحبها الذى لا يعادله حبيب .. إنه الحب للخالق الأعظم .. مبدع هذا الوجود كله .. والذى بيده ملكوت كل شىء .. !

أعجبت برابعة العدوية .. وسيرة حياتها .. وزهدها وحبها العميق، وتغنيها بهذا الحب، بشعر يثرى الوجدان .. بما فيه من رهافة حس، وبما فيه من تعبير عن خوالج أنثى .. عرفت الطريق إلى الله عن طريق الحب:. وفتح لها هذا الحب أبواب السماء .. فلم تر بعد أن عرفت حلاوة هذا الحب، ما يجرى على الأرض من حولها من دنس الطين .. ونادت من أعماق قلبها .. معرضة عن هذه الدنيا الفانية .. وهى تتوجه إلى الخالق الرحمن الرحيم :

إذا كان منك الود فالكل هين   وكل الذى فوق التراب تراب

إنها لا تريد إلا الود من ربها .. أما الذين يمشون على الأرض .. فهم من تراب هذه الأرض، وسيعودون إلى التراب .. ولكن الخالق العظيم هو الأول بلا ابتداء .. الآخر بلا انتهاء.

ورغم إعجابى الشديد بسيرة هذه السيدة العظيمة ومع قراءاتى الكثيرة المتعددة عنها في مختلف كتب التراث، ومن خلال الدراسات التى كتبت حولها .. فإنى قد وجدت أن سيرتها مليئة بالأساطير والخرافات التى وضعها الناس عنها .!!

أساطير وخرافات لا تخضع لمنطق، ولا يصدقها عقل، ولا تضيف إلى (رابعة العدوية) شيئآ.. ولو قرأت رابعة ما كتب عنها لكذبته .. فقد عبدت ربها حبا للذات العليا .. لا طمعا فى جنة، ولا خوفا من نار ، ولا ابتغاء شهرة فى هذه الدنيا النائية عن طريق الكرامات.!

وربما تكون لها الكرامات .. والكرامات ليست بعيدة عن أولياء الله وأصفيائه.. والكرامة اختص بها الأولياء كما اختص الأنبياء بالمعجزات .. ولا غرابة على إنسانة وهبت نفسها لحب الله أن يكون له بعض هذه الكرامات .. ولكن الكرامات التى نسبوها لها تدخل في دائرة الأساطير .!

صحيح أن الكرامة هى خرق الطرق لقوانين الحياة المألوفة بقوة الخالق -سبحانه وتعالي- .. ولكن الروايات التى رويت عن رابعة لا تدخل فى هذا النطاق..

فليس من المعقول مثلا أن تذهب حاجة إلى بيت الله الحرام، منقلبة على جنبيها لتصل إلى الكعبة بعد ثمانى سنوات !!

وما الذى يلجئها إلى هذا الأسلوب للتقرب إلى الله، والشرع واضح وصريح، ولا يحتاج إلى هذا العناء البهلوانى ..

الشرع يدعونا إلى الحج بالوسائل المتاحة فى كل عصر ..

﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ من كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ ..

ويروى الرواة أن الصوفى الشهير إبراهيم بن أدهم ذهب إلى بيت الله الحرام .. ولم يجد الكعبة، وعندما أراد أن يعرف السر، سمع هاتفا يقول له :

إن الكعبة ذهبت لاستقبال رابعة !!

وهذا القول الأسطورى ردده بعض غلاة الصوفية عندما قال بعضهم:

- إن من عباد الله من يذهب ليطوف بالكعبة سبعا

فرد عليه أحد هؤلاء الصوفية :

-وأن هناك من عباد الله من تطوف بهم الكعبة سبعا !!

الكلام الذى قيل عن رابعة نفسه.. بأن الكعبة ذهبت لتكون فى استقبالها .. وأيضا .. فإن الكعبة تنقل لتطوف ببعض الصوفية سبعا !!

أساطير أضافها الشطحات الصوفية لهذه السيدة الفاضلة بغرض إضفاء مزيدمن هالات التمجيد لها .. هذه الأساطير البعيدة عن واقع لا يخدم سيرة هذه السيدة الفاضلة، التى اخترقت مختلف أزمنة العصور .. وقرأ الناس سيرة حياتها منبهرين بها .. معجبين بإنسانة.. أزالت عن نفسها كل أوساخ الدنيا لتترنم حبا وإجلالا لرب العزة - سبحانه وتعالى- .. يكفيها أنها بهذا الحب كونت مدرسة فى التصوف الإسلامى، سار علي نهجه بعد ذلك كبار رجال الصوفية .. وهى مدرسة الحب الإلهي .

أليست هي القائلة :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى   وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانسى   وحبيب قلبى فى الفــؤاد أنيسى

.. إن سيرة حياة (رابعة العدوية) .. وحبها الإلهى.. ومذهبها فى التصوف الإسلامي .. جعلها رائدة فى هذا المجال .. مجال من يريد أن يعرف الله، ويقترب منه بالطاعة والحب، حتى تسمو روحه .. وترتفع إلى آفاق لا تخطر علي بال. حتى قال عنها ابن خلكان :

كانت رابعة من عُباد عصرها، وأخبارها فى الصلاح والعبادة شهورة .

مأمون غريب

• الزهد .. فى الإسلام •

بدأ التصوف بالزهد .

فقد عرف الناس الزهد، وساد هذا الاتجاه عقب الفتوحات الإسلامية الكبري، التي انهارت علي أثرها الإمبراطورية الفارسية، وسقطت تحت سنابك خيل المسلمين أجزاء كبيرة من الإمبراطورية الرومانية، فأصبحت الشام ومصر والشمال الإفريقي خاضعة للسيادة الإسلامية وكانت مناطق خاضعة للرومان .. فأثر ذلك كل التأثير على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى ظل الخلافة الاسلامية .. وبدأ الترف، وساد حب المال والجاه والسلطة واقتناء الجوارى، وما تبع ذلك ممن إقبال على الدنيا وحب البعض لما فيها من متاع .. وكان رد الفعل أن زهد البعض الأخر فى هذه الدنيا، وفضلوا ما عند الله، وقرروا ألا تغرهم الدنيا بمتاعها الزائل .. فظهر الزهاد.

أى أن الحياة العربية سادها روح الترف من جانب .. وروح الحنين إلى الحياة الروحية من جانب آخر وقد وجد الزهاد فى سيرة الرسول الكريم - عليه الصلاة والسلام -المثل والقدوة، كما وجدوا فى حياة بعض الصحابة أيضا المثل والقدوة.

لم يكن الزهد فى هذه المرحلة إذن متأثرا بأى رافد أجنبى من فلسفات دخيلة، بل بدأ شديد الصلة والارتباط بالإسلام نفسه .. متخذا من سيرة النبى- عليه الصلاة والسلام -قدوة ومثالا .

فالرسول -عليه الصلاة والسلام- نشأ يتيما .. مات والده وهو ما زال جنينا في بطن أمه، وماتت أمه فى (الأبواء) وكان عمره ست سنوات، وكفله جده عبد المطلب، الذي مات بعد عامين من كفالته له، وعندما كفله عمه أبو طالب، كان عمه كثير العيال مما جعل محمد بن عبد الله يحاول أن يساعد عمه، فعمل راعيا، قبل أن يعمل فى تجارة السيدة خديجه، التى تزوجته بعد ذلك عندما عرفت أمانته، ورغم ثراء السيدة خديجة، لم يعرف عنه الإسراف، بل كان كما قالت عنه السيدة خديجة عندما جاءه وحى السماء :

« إنك تحمل الكل ، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الدهر، وتغيث الملهوف»

وعندما جاءته أعباء الرسالة، أصبح أكثر الناس زهدا فى الحياة التى لا تساوى عند الله جناح بعوضة، وكان منتهى أمله -عليه الصلاة والسلام -أن يبلغ وحي الله .. وأن يهدى الناس إلى طريق السليم : ومن هنا فقد رفض أن يكون نبيا ملكا كما كان داود وسليمان- عليهما السلام. يقول الرسول - عليه الصلاة والسلام- فيما روى ابن عباس :

إن الله – تعالى – أرسل نبيه ملكا من الملائكة معه جبريل فقال الملك لرسول الله– صلى الله عليه وسلم – إن الله يخيرك بين أن تكون عبداً نبيا، وبين أن تكون ملكا نبيا، فقال رسول الله– صلى الله عليه وسلم–، بل أكون عبدا نبيا (البخارى) .

ورغم أن رسول الله عندما هاجر إلى المدينة، وفرض الجهاد، وكان من حقه خمس الغنائم لقوله تعالى :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

رغم ذلك فإن الرسول الكريم كان يعيش على الكفاف، وكان يوزع ما يؤول إليه على المسلمين .. وكان ينام على الحصير الذى كان يؤثر فى جسده – عليه الصلاة والسلام– دخل عليه (عمر بن الخطاب) وهو معتزل نساءه فى مشربة، فرآه يجلس فيها على حصير قد أثرت فى جنبيه ونظرا عمر فلم يجد فى هذه المشربة إلا حفنات من شعير وتمر..

فقال له عمر :

– قد وسَّع الله عليك يا رسول الله، فهلا تزودت من الدنيا بما يقوِّتك ؟ !

فقال له النبى -صلى الله عليه وسلم- :

- كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » . رواه البخارى.

وروى الإمام البخارى عن أنس بن مالك، خادم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال :

- ما علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم أكل على سكرجة قط، ولا خبز له مرقق قط، ولا أكل علي خوان قط (السكرجة إناء صغير فيه ما يفتح الشهية للطعام، والمرقق الخبز الرقيق) .

ويروى الترمذى بسنده أن رجلا جاء إلى رسول الله - صلي الله عليه وسلم - فسأله أن يعطيه فقال :

- ما عندى ما أعطيك ولكن اذهب فابتع على شيئا، فإذا جاءنى شىء قضيته !

فقال عمر بن الخطاب :

- يا رسول الله ما كلفك الله - تعالى - مالا تقدر عليه فكره النبى عليه الصلاة والسلام قول عمر .

فقال رجل من الأنصار

- يا رسول الله أنفق . ولا تخش من ذى العرش إقلالا ..

فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وعرف التبسم فى وجهه لقول الأنصارى.

والحديث عن زهده- عليه الصلاة والسلام - يستوعب مجلدات .. من هنا أخذ صوفية الاسلام عن الرسول - عليه الصلاة والسلام- زهده وتقشفه وإعراضه عن مباهج الدنيا..

إنه كان يعيش بالله ولله.

وكان رغم جهاده العظيم ..

ورغم مشغوليته بتبليغ رسالة الإسلام .. ورغم المصاعب الجمة التى يلقاها وهو يريد هداية الناس إلى طريق الهدى والنور .. فكان كل ذلك لا يشغله عن العبادة، وطول السهر .. ذاكرا الله -سبحانه وتعالى ..

حتى أن عائشة- رضي الله عنها- عبرت عن الرسول عليه الصلاة والسلام يقولها :

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يصوم حتى نقول : لا يفطر.

ويفطر حتى نقول لا يصوم.

« وكان لا تشاء وتراه من الليل قائما إلا رأيته، ولا تشاء تراه نائما إلا رأيته »

ويروى أبو الدرداد أنه قال (فيما رواه البخارى ومسلم) :

« خرجنا مع رسول الله- صلى الله عليه وسلم - في شهر رمضان فى حر شديد، وما فينا صائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وعبد الله بن رواحة »

★★★

وإذا كان صوفية الإسلام فيما بعد قد عكفوا على العبادة وتقوى الله ،وخشيته، فقد كان لهم -أيضا- فى رسول الله أسوة حسنة.

كان الرسول الله صلى الله عليه وسلم شديد الخوف من الله، رغم قربه منه.

قال جابر بن عبد الله فيما رواه الإمام البخارى :

«جاءت ملائكة إلى- النبى صلى الله عليه وسلم -وهو نائم فقال بعضهم : إنه نائم

وقال بعضهم : إن العين نائمة والقلب يقظان.

فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلا، فاضربوا له مثلا

فقالوا : مثله كمثل رجل بنى دارا، وجعل فيها مأدبة.

وبعث داعيا، فمن أجاب الداعى دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة.

فقالوا :أوِّلوها له يفقهها

قالوا : فالدار الجنة، والداعى محمد

فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله- عز وجل-، ومحمد فرق بين الناس (أى فرق بين الحق والباطل).

كان رسول الله يسمع ذات يوم ابن مسعود وهو يقرأ القرآن، وعندما وصل إلى قوله تعالى :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ النساء٤١

فإذا به -عليه الصلاة والسلام- تتساقط دموعه، ويقول لابن مسعود .

«أمسك».

لقد ملأ خوفه من الله كل كيانه فسالت دموعه

ويروى (عوف بن مالك)

كنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة فاستاك،ثم توضأ، ثم قام يصلى.

فقمت معه.

فاستفتح (بالبقرة) فكان لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا مرَّ بآية عذاب إلا وقف وتعوذ. ثم يركع فمكث بقدر قيامه يقول :

سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ثم سجد وقال مثل ذلك.

ثم قرأ (آل عمران) ثم سورة سورة، يفعل مثل ذلك .

قال عوف :

« أينا يطيق أن يصنع ما يصنع»



كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه .. حتى إن زوجاته قلن له :

- أتتكلف كل هذا وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فقال :

- أفلا أكون عبدا شكورا » :

إن رسول الله أكثر الناس زهدا.

وكان رسول الله أكثر الناس عبادة ..

كان إذا صلي الليل وحده أطال الركوع والسجودا ..

ولكنه كان يخفف إذا صلى بالناس فى المسجد إنه يأتمر بقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا﴾

وهو القائل كما يروى البخارى .

«إن عينى تنامان ، ولا ينام قلبى »

هذا هو رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فى تعبده وزهده وتقواه.

ومن هنا فقد كان المثل الأعلى لكل من يريد أن يعرف الطريق إلى الله .

وجاء الصوفية فيما بعد واقتدوا بأعظم رسل الله .. فى زهده وتعبده وتقواه، وأخلاقياته وفضائله .

فكان التصوف عندهم خُلُق .

وكان التصوف تحلّى بالعبادات، وتخلّي عن الرذائل.

كان همهم محاربة الهوى والنفس والشيطان .. أبتغاء رضا خالقهم الأعظم .. وحتى يصلوا إلى درجات القرب من الله.

لم يكونوا مبتدعين وهم يريدون من تعبدهما لله تعالى ، حتى تشرق عليهم الأنوار الإلهية وكان رائدهم في ذلك أحاديث الرسول -صلي الله عليه وسلم -.. ومن هذه الأحاديث الحديث القدسى

الذى رواه الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة -رضى الله عنه قال- ...

قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم إن الله- تعالى- قال :

« من عادى لى وليا فقد أذنته بالحرب❖ وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضت عليه ❖ وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذاأحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ❖ وإذا سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه »



وعندما أقول التصوف .. لا أعنى إلا التصوف السنى التصوف الذى لا يحيد عن كتاب الله ولا سنة رسول الله- عليه الصلاة ،السلام- .

ولا أقصد بالتصوف .. التصوف الفلسفى بما فيه من روافد جاءته من الفلسفات الأخرى .. ففى مثل هذا التصوف العديد من المحاذير

ويبقى أن نعرف أن لهؤلاء الأولياء كرامات كما للأنبياء معجزات. وكل من المعجزات .. أو الكرامات من الله - تعالى-

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود عن هذه الكرامات :

« .. ففى البخارى أن رجلين خرجا- من عند رسول الله - صلي الله عليه وسلم - فى ليلة مظلمة، فإذا النور بين أيديهما حتى تفرقا، فتفرق النور معهما.

وفي البخارى- أيضا- أن عمران بن حصين كانت تكلمه الملائكة.

ونادى عمر بن الخطاب :

- « يا سارية الجبل» يحضه إلى الرجوع إلى الجبل حذرا من العدو، وبينهما مسيرة أيام فسمعه سارية، فرجع إلى الجبل وسلم من العدو.

ويقول صاحب كتاب نشر المحاسن عن ظهور الكرامات :

إنها جاء عنها فى القرآن الكريم، والأخبار والأثار بالإسناد ما يخرج عن الحصر والتعداد، فمن ذلك فى القرآن الكريم ما أخبر الله تعالي - عن مريم - رضوان الله تعالي عليهما يقول- عز وجل -:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾

وكان يجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف، وفاكهة الصيف فى الشتاء، هكذا جاء فى التفسير ، وكذلك إلهام أم موسى- على نبيناوعليه الصلاة والسلام- فى أمرها ما هو معروف .

(وكذلك ما أخبر الله- تعالي- من العجائب على يدالخضر رضوان الله تعالى عليه مع موسى- على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام- وكذلك قصة ذى القرنين- رضوان الله تعالى عليه-، وتمكين الله -تعالى- له ما لم يمكنه لغيره، وكذلك قصة عرش بلقيس فى قوله تعالى :

﴿ قَالَ الَّذِي عِنـدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ.﴾

وكل هؤلاء المذكورين ليسوا بأنبياء بل أولياء»

ويورد الدكتور عبد الحليم محمود قول الإمام الشافعى :

ظهور الكرامات على الأولياء- رضى الله تعالى عنهم- جائز عقلا، وواقع نقلا.

أما جوازه فى العقل فإنه ليس يستحيل في قدرة الله -تعالى- ، بل هو من قبيل الممكنات، كظهور معجزات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وهذا مذهب أهل السنة من المشايخ العارفين، والنظار الأصوليين، والفقهاء والمحدثين- رضى الله تعالى عنهم أجمعين-، وتصاريفهم ناطقة بذلك شرقا وغربا .. عجما وعرباً .



الخلاصة أن التصوف البعيد عن الشطحات، المستمد من الكتاب والسنة .. هو تقرب وقربى إلى الله- تعالى - ووجد المستظلون بظله الأمن والأمان، وراحة البال، بأن يحتمى بحصن الإسلام ليصل إلى الأنوار الإلهية .

وإذا كان الزهد فى الدنيا .. والبعد عن ترفها يفضى إلى الإقبال على كل ما يثرى المرء فى أخراه .. فإن العبادة .. والإخلاص فيها هما المدخل إلى القرب من الله، حيث يرى المتعبد من انشراح، ما يجعله يشعر بلذة العبادة .. ومن هنا فقد عبر أحد الصوفية عن حالة الوجد التى يشعر بها بقوله :

-نحن فى سعادة لو عرفها الملوك لحاربونا عليها بالسيوف !

وقد عرفت رابعة العدوية جمال الأشواق النفسية عندما زهدت فى الدنيا، وودعت اللهو والعبث وتغنت بالحب الإلهى .. هذا الحب الذى سما بروحها إلى أفاق لم تكن تخطر لها على البال ..

فقد وجدت فى الذات الإلهية نعيما وسعادة وقربا، حتى أصبح هذا الحب البوابة التى تدخلها إلى عالم الأنوار .. فلم تعد تحس .. ولم تعد تشعر إلا بأشواقها وحبها للخالق الأعظم .. هذا الحب ملك عليها كل جوانب نفسها فلم تعد تشعر بمن يحيط بها .. وبمن يقترب منها .. إنها معه بجسدها، أما الروح فهائمة فى حب الذات العلية..

ولقد عبرت هى عن هذا الوجد بقولها :

إنى جعلتك فى الفؤاد محــدثى   وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانسى   وحبيب قلبى فى الفؤاد أنــيسى

فكيف بدأت رابعة العدوية سيرتها نحو الله ؟

وما هى إرهاصات هذا الحب الذى ملأ عليها كل جوانب الحب الإلهى ؟

وكيف انسلخت من دنيا الأهواء إلى رحاب الهدى الإلهى ؟

وهذا يسوقنا إلى البدايات :

كيف بدأت حياتها منذ مولدها ، إلى أن وقعت أسيرة الرق، إلى أن رأت أن حياتها ليست في العزف على الناى، بل العزف علي وتر الحب الإلهى ..؟

إنها قصة طويلة تبدأ بالميلاد . !

• وقائع حياة رابعة العدوية •

وقائع حياة رابعة العدوية .

ولدت رابعة القبسية فى عام ٩٥ هـ في البصرة .. وكانت مدينة البصرة تعج بالعلماء ورجال الدين والفقهاء وعلماء الكلام والزهاد .

وكانت البصرة تمتلئ بالقصور الذى يمتلكها الأغنياء- وأيضا فيها أكواخ الذى يعيش فيها الفقراء .

وفى أحد هذه الأكواخ ولدت رابعة ..

وقيل إنها سميت رابعة لأنه قد سبقت ثلاثة أخوات فأطلق عليها والدها اسم رابعة .

كان والدها رجل فقير .. ولكنه كان على خلق .. وكذلك كانت أمها .

وقد وردت أساطير كثيرة حول مولد رابعة .. !

فالذين كتبوا عن سيرتها تحدثوا عن فقر هذه الأسرة التى أنجبت (رابعة) .. وأنها عندما ولدت لم يكن فى المصباح الذى يضىء البيت من الزيت إلا القليل بما جعل المصباح يرسل ضوءا

، شـديد الشـحوب وأن الأم لم تجـد مـا تسـتـر به وليـدتهـا، فـأرسلت زوجها إلي الجيران طلبا لبعض الزيت لهذا المصباح الشاحب لكنه رجع بحفى حنين

ونام الرجل حـزينا، فـرأى فـيـمـا يرى النـائم النبى -عليـه الصلاة والسلام-يقول له :

- لا عليك، إن هذه البنت التى ولدت هى سيدة جليلة القدر، إن سبعين ألفا من أمتي ليرجون شفاعتها » وطلب منه أن يذهب إلي حاكم البصرة(عيسى ذا ذان)..

ويقدم له ورقة مكتوب فيها :

- إنك تصلي مائة صلاة، وفى ليلة الجمعة أربعمائة، ولكنك فى يوم الجمعة الأخير نسيتني، فقدم إلى هذا الشخص أربعمائة دينار كفارة ليحط بها عنك إثم هذا النسيان، وأخذ الرجل نفسه، وأرسل الرقعة بعد أن كتبها وأرسلها إلى الحاجب الذى أرسلها بدوره إلى الأمير، وقرأ الأمير الرقعة، وقال كما أورد ذلك فريد الدين العطار فى (تذكرة الأولياء) .

- أعطوا ألفي دينار للفقراء، وأربعمائة للشيخ وقولوا له أن يأتى إلىَّ لأراه، كلا بل أرى من الأوفق أن أذهب أنا إليه، وأركع على عتبته، وأمسحها بلحيتى، وأسأله أن يطلب كل ما أريد، ويشترى للصغيرة كل ما تريد وما تطلب »

ومعنى هذا أن رابعة جاءت ورزقها معها .. أو أن الله هيأ لها، ما يكفل لها طفولة متيسرة .. وأنها ستكون سعيدة فى الدنيا .. فالرسول - الكريم عليه الصلاة والسلام- قد بشر والدها بذلك .. وأرشده إلى الطريق الذى يصل منه المال ما يدفع عنها وعن أسرتها غائلة الفقر ..

وهكذا أحيط مولد (رابعة بحكايات هى أقرب إلى الأساطير) !

وأصبح والدها وكان يدين بالولاء لآل عتيك لا يحتاج إلي أحد بعد أن يتعهد هذه الأسرة برعايته أمير البصرة !

وأمها كما أورده ابن خلكان فى ترجمته لها : أم الخير بنت إسماعيل العدوية البصرية القيسية .

وتقول الدكتورة سعاد عبد الرازق إن والد رابعة لم يكن عبدا بل كان عابدا، يدين بالولاء لآل عتيك . وربما كان لأسرته نسب بالفرس الذين أسلموا وقدموا البصرة إبان الفتح الإسلامى. وهذا فرض لم يرق إلى اليقين بعد وآل عتيك بطن من بطون قيس ومن آل عتيك بنو عدوة، ومن بنى عدوة اسماعيل والد رابعة .. وهذا ما ذكره كل من ابن خلكان والزبيدى والمناوي والشعرانى. .

فلو سلمنا بذلك يكون اسمها كالآتى :

رابعة بنت إسماعيل العدوية- نسبة إلى بنى عدوة- العتكية

القيسية، وأخيرا البصرية » .. وكانت كنيتها أم الخير : فرابعة اسمها، وإسماعيل أبوها ، وعدوة فخذ من آل عتيك، وآل عتيك بطن من بطون قبيلة قيس . فهذه إذن عشيرة رابعة »



ونعرف مما يرويه الرواة عن حياة رابعة العدوية .. أنها كانت شديدة الذكاء .. وأنها حفظت القرآ الكريم في سن صغيرة وأن والدها مات وهى على عتبة الشباب، فى وقت اجتاح البصرة فيها قحط شديد، مما دفع رابعة وأخوتها إلى التفرق بحثا عن لقمة العيش، وأن رابعة وقعت فريسة الرق، بعد أن أخذها أحد التجار ثم باعها فى سوق الرقيق.

في هذه الفترة من حياتها يصف الرواة كيف كانت جميلة الصوت، وأنها كانت تجيد العزف على الناى.. بجانب ما حباه الله لها من الجمال .. مما جعل سيدها يغريها بالغناء لأصدقاء سمره، وكانت تضيق ذرعا بذلك .. فقد حفظت كتاب الله وهى فى سن صغيرة .. وكانت نفسها تتوق إلى ما عند الله، فمهما تمادى الإنسان فى الغى، وكان عنده أساس فى الطفولة من حب الله والعمل بكتابه وسنة رسوله، فلابد أن يتوق إلى تلك الأيام.. ولابد أن تحدث عنده لحظة إفاقة .. لحظة محاسبة النفس .. وكيف لا .. وقد نشأت فى أسرة فقيرة .. سندها حب ما عند الله ..

ووالدها عابد .. خاشع .. محب لجلال الله .. إن تلك السنوات من أيام الطفولة لا شك تضع بصماتها فى أعماق الإنسان ، فلا يستطيع التحرر منها، وإن استطاع أن يتحرر من جاذبيتها، فلابد أن تعود إليه من جديد .

وهذا ما نراه فى حياة رابعة العدوية ..

فمهما قيل عن أيام الشباب .. واللهو والعبث التى عاشت فيها .. بحكم رقها من ناحية، وبحكم الدوافع القوية فى بدايات الشباب، والنزوع للهو، وانتزاع ما يتصور أنه سعادة، سواء أكان فى الغناء بما يرضى السادة من أصحاب سيدها ، أم الشراب .. أو الانغماس- فيما يتصور - أنه السعادة .. لابد من كل هذه الأمور أن ينظر إليها بمنظار العقل والضمير .. والعقل والضمير .. سوف يحكم علي أن هذه السلوكيات ليست من شيم الإسلام ومبادئه وفضائله.. وخاصة إذا كان الذى يعيش فى هذه الظروف .. من كان فى مثل رابعة التى حفظت القرآن صغيرة .. ورددت آياته بصوتها الجميل .. ورأت والدها فى خشوعه وخضوعه لربه فى صلاته .. من الصعب على فتاة مثلها مرت بهذه الظروف أن يجرفها تيار الهوى والملاذ إلي مالا نهاية .. وقد تضاربت الآراء فى الحياة التى عاشتها رابعة سواء فى بدايات الصبا، وبدايات الشباب .. ودخلها الكثير من الأساطير والخرافات التي لا تعقل

وربما يرجع ذلك إلى أن (رابعة) أصبحت فيما بعد حديث الناس فى زهدها وحبها الجارف للخالق جل علاه- وتاقت إليها النفوس، وأحب الناس هذا الزهد فى عالم يعج بالترف والرفاهية الزائدة .. فالأغنياء لهم عالمهم .. والفقراء لهم عالمهم

عالم الأغنياء عالم يوح بالإقبال الزائد على الدنيا وما فيها من ترف وملاذ .. فى قصورهم الجواري وحفلات الرقص والطرب .. والإنفاق بلا حدود ..

وعلى الطرف الآخر كان الفقراء يعيشون تحت مستوي حقوق الإنسان .. فقر مدقع .. وحرمان واضح .. ولا يجدون القوت الضرورى إلا بشق الأنفس !

فكان الطبيعى أن تتعاطف القلوب مع هذه الشابة التى سمعوا أنها ذات جمال .. وذات صوت رخيم .. وأنها تجيد العزف على الناى .. وأنها تركت كل ما كانت تعيش فيه من ترف فى قصر سيدها لتكرس حبها لربها .. تغنى له وحده .. وتعبده وحده.. ولا ترى فى الدنيا إلا نوره .. ولا تعرف إلا جماله .. ولا يشوقها إلا حبه الذى ملك عليها كل جوانب نفسها ..

وهذا الحب (لرابعة) .. جعل البعض يصورها وكأن كبار زهاد عصرها يبدون كتلاميذ صغار أمامها بمافيهم الزاهد الشهير الحسن البصرى .. رغم أن رابعة كما يقول معظم الذين أرخوا

لحركة الزهد الاسلامي في القرن الأول الهجرى والثانى ، يكادون يجزمون أنها لم تشاهد الحسن البصرى، ولم تجلس إليه .. لأنها توفيت سنة ١٨٥ هـ، بينما توفى حسن البصرى سنة ١١٠هـ .. أى أن الحسن البصرى عندما انتقل إلى جوار ربه كانت هى فى الخامسة من عمرها أو أكبر قليلا أو أقل قليلا .. ومن هنا فمن الصعب أن تكون قد جلست إليه . اللهم إلا إذا كانت قرأت عن زهده، وأرائه فى هذا المجال فاستفادت منها .. أو على الأقل سمعت عن هذا الزاهد الكبير الذى ترك بصماته بلاشك على عصره .. وما تلاه من عصور .

فالحسن البصرى شديد الخوف من الله حتى كأن النار لم تخلق إلا له ..

وقد شكل مع تلاميذه مدرسة للزهد شعارها الخوف من الله.

فهم يعملون حتى ينالوا ثواب ربهم .. ابتغاء مرضاته حتى يدخلهم جناته.

ولكن الخوف الذى كان يتسم به الحسن البصرى ساقه إلى الحزن .. حتى أنه عبر عن ذلك بقوله :

إن المؤمن يصبح حزينا ، ويمشى حزينا، ولا يسعه إلا ذلك لأنه بين مخافتين :

بين ذنب مضى لا يدرى ما الله يصنع فيه .. وبين أجل قد بقى لا يدريه ما يصيبه من المهلك »

ومن خلال هذا التكوين النفسى لهذا الزاهد الجليل تراه يقول :

«يا بن آدم : أنت اليوم فى دار هى لاقطتك، ثم تفضى بأهلها إلى أشد الأمور وأعظمها خطرا .. فاتق الله يا بن آدم .. وليكن سعيك فى دنياك لأخرتك، فإنه ليس لك من دنياك شىء إلا ما صورت أمامك ولا تدخر علي نفسك من مالك، ولا تتبع ما قد علمت إنك تاركه خلفك»

ومن شدة خوفة من ربه .. رويت عنه روايات كثيرة تمتلىء بها بطون كتب التصوف « رأى ذات يوم رجلا يأكل بين المقابر فتعجب وقال للرجل : أما فى حال هؤلاء الأموات ما يكفيك عن تذكر الأكل !!

وعندما بنى أحدهم قصرا، دعا إلى زيارته فيه الحسن البصرى .. ونظر الحسن البصرى إلى القصر من الخارج ومن الداخل، وأذهله ما فيه من فخامة، وكأن صاحبه سيعيش فيه أبد الدهر، وتداعت إلى ذهنه خواطر عدة :

لماذا لا يبني لأخراه ما بناه لنفسه في دنياه !

وقال له :

«أخربت دارك وعمرت دار غيرك !

لأغراك من فى الأرض .. ومقتك من فى السماء طء الأرض بقدمك فإنها بعد قليل قبرك . إنك لم تزل فى هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك»

وكان الحسن البصرى بجانب زهده فى الدنيا عالما متفقها في الدين .. وكانت النزعة الروحية قوية عنده، حتى أصبح الحزن والخوف من الله من نسيج تكوينه النفسى فهو القائل :

« إنما الفقيه الزاهد فى الدنيا، البصير بذنبه المداوم علي عبادة ربه »

حتى قال عنه ابن أبى الحديد :

وكان الحسن البصري لا يراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة وذلك من شدة حزنه وخوفه . !

ولحب الناس لرابعة القبسية .. أو العدوية .. نسبوا إليها أن الحسن البصرى كان يقف أمامها موقف التلميذ من الأستاذ !!

.. مهما يكن شىء فقد تربعت (رابعة العدوية) فى قلوب الناس، عندما تخلصت من أسر الرق، وتحررت من عبوديته، وانطلقت بعد ذلك فى حب سيدها الوحيد .. الذى لم تر سواه ..

وهو حب (الذات العلية) .. والتى ردد الناس معها .. تلك المناجاة الرائعة

أحبك حبين حب الهوى

وحب لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حـــب الهـــوى

فشغلى بذكرك عمن سواكـــــا

وأمـــا الذى أنت أهـــل لـــه

فـــكشفك لى الحجب حتى أراكا

فـــلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى

ولكن لله الحمـــد فى ذاو ذاكـا

★★★

والمتابع لحياة رابعة العدوية من خلال كتب التراث يرى فيها تناقضات لا تستقيم مع المنطق ..

فهناك من قال إن رابعة العدوية عندما أعتقها سيدها عندما كان يتنصت عليها، فوجدها تذكر الله -تعالى -فى حجرتها، ومن خلال ثقب الباب وجد قنديلا معلقا فى أعلى الحجرة تضىء

الحجرة، مما جعله يوقن أن لرابعة مكانة عند ربها .. وبالتالى أعتقها فى اليوم التالى .

ويقول بعض الرواة إن (رابعة) عندما فضلت الحرية، وكانت تجيد الغناء والعزف على الناى وحتى توفر لنفسها لقمة العيش احترفت الغناء والعزف على الناى .. وهذه الفترة من حياتها عاشت حياة اللهو والبعد عن قيم الدين وفضائله .

وهذا الرأى يثير العديد من علامات الاستفهام الحائرة .. فكيف تعود (رابعة) إلى حياة اللهو والعبث بعد أن عرفت وذاقت حلاوة الإيمان .. !

وكيف تنغمس فى الملذات، وهى التى استشعرت جلال الحب الإلهى ؟

ولكن المنطق أن تكون الفترة التى عاشتها تعزف للناس وتغنى، هى تلك الفترة التي عاشت فيها فى ظل الرق، فلم تكن إرادتها بيدها بل بيد سيدها ..

ورغم ما كانت تقوم به رغبة فى رضاء أوامر سيدها، فكانت روحها تتوق إلى الحب الإلهى

ومن هنا كان ترددها على المساجدتسمع أئمة المساجد، وتسمع عن الصالحين من زهاد البصرة.. وبالتالى كانت تريد أن

تقتفي أثر هؤلاء الزهاد .. مما جعلها تخلو إلى نفسها .. وتتعبد عندما تخلو إلى نفسها، فتخلوا إلى الله .. بعبادته .. وترديد الأذكار .. وقراءة القرآن الكريم .

فمن الصعب لإنسان عرف لذة الطاعة أن يعود إلى ذل المعصية .. !

ومن غير المعقول لنفس تواقة إلى ما عند الله وهى فى الرق، تعود إلى المعصية بعد أن أصبحت حرة .. لا تأتمر بأمر سيدها يرغمها على ما تأباه نفسها وروحها .. !

كان من الطبيعى أن تلجأ رابعة إلى أحد أقربائها المشهورين بالزهد .. والذى كان معروفا فى البصرة .. إنه رباح بن عمرو القيسى .. وكان معروفا بزهده وكثرة أذكاره ، كما كان شيخه (عبد الواحد بن زيد).. ومع رباح وجدت الأمن والسكينة .. وأنه سوف يأخذ بيدها إلى الطريق السليم ، وخاصة أن هذا الرجل الزاهد .. الكثير البكاء خوفا من الله، كان على صلة بزهاد عصره ممن سلكوا طريق الله من أمثال مالك بن دينار، وسليمان الثورى، وإبراهيم بن أدهم وغيرهم من زهاد عصرها المشهورين، والذين توثقت معرفتها بهم بعد ذلك عندما ذاعت شهرتها ، وأمعنت السير فى طريق الحب الإلهى ..

وكان من الطبيعي أن يدلها (رباح القيسى) فى أول أمرها

إلى سيدة زاهدة .. عرفت بحسن عبادتها لله وورعها وكان الناس يحترمون فيها هذا الصبر فى العبادة، والحب لله، وهى (حيونة)..

إنها هى الأخرى كانت قد قطعت أشواطا فى طريق الزهد والتمسك والعبادة .. وكانت تلميذة (لعبد الواحد بن زيد) . الشيخ الذى أخذ عنه (رباح القيس) نفسه..!

فى غبق هذا الجو الروحانى، المعبق بجلال العبادة، والخوف من الله، كانت خطوات رابعة فى أول طريقها إلى الحياة الروحية الخالصة، والتي سوف يكون وسيلتها إلى الله .. هو حب الله ..

لقد تأثرت رابعة (بحيونة) .. وحبها الإلهى .. فقد كانت تقول :

« من أحب الله أنسى ، ومن أنس طرب ، ومن طرب اشتاق، ومن اشتاق وله ، ومن وله خرم، ومن خرم وصل، ومن وصل اتصل، ومن اتصل عرف، ومن عرف قرب، ومن قرب لم يرقد، وتسورت عليه بوارق الأحزان »

وكانت (حيونة) قد بلغت فى عبادتها ما جعلها ترى فى أقرانها فى الزهد من أعلام عصرها أنهم ما زالوا متعلقون بالدنيا رغم إعراضهم عنها .. فما زال فى قلوبهم شىء يشدهم إلى دنياهم !!

وهناك من الذين كتبوا عن (رابعة) وصوروها أنها مجرد عابدة (أحبت الله) .. وقالت فى ذلك كلمات عاشت وتركت بصماتها على دنيا الناس، وقالت أشعارا من جمال هذه الأشعار علقت بأذهان الناس فردودها .. ومن هنا اشتهرت وتجاوزت بهذه الشهرة عصرها إلى العصور التالية ..

وكانوا يرونها عاشت حياة (عادية) .. وكادوا ينفون عنها الكرامات التى قيلت عنها.!

وهؤلاء الناس ظلموا رابعة .. كما ظلموا الحقيقة فلم تكن (رابعة) .. رغم الهالة التى أحاطتها من الأساطير مجرد عابدة، خلدتها أشعارها فى الحب الإلهى .. ولكنها كانت صاحبة (رؤية) فى الحب الإلهي .،. تبعها فيه كبار رجال الصوفية الذين جاءوا بعدها بعشرات ومئات السنين ، من أمثال ابن الفارض، وابن عربى، والبوصيري وغيرهم من الذين اشتهروا بالحب الإلهى .

.. إنها من أولياء الله الصالحين .

فما أكثر ما قامت لله داعية متعبدة متهدجة .. وما أكثر ما أطلقت عيونها حزنا وحبا لذاته- تعالى .

وكانت عند حسن ظنها بربها .

والرسول -عليه الصلاةوالسلام- هو القائل كما جاء فى

الصحيحين عن أبى هريرة : قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :

يقول الله -تعالى- : أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرني فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم، وإن تقرب إلىَّ شبرا تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلىَّ ذراعا تقربت منه باعا، وإذا أتانى يمشى أتيته هرولة »

وفى الترمذى عن معاذ بن جبل قال :

كنت مع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- في سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير فقال :

- ألا أدلك على أبواب الخير ؟

- الصوم جنة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل فى جوت الليل شعار الصالحين . ثم قال :

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

وروى عن الإمام علي بن أبي طالب قوله :

الخير كله مجموع في أربعة : الصمت والنطق، والنظر ، والحركة .

فكل نطق لا يكون فى ذكر الله فهو لغو

وكل صمت لا يكون فى فكر الله فهو سهو

وكل نظر لا يكون عبره فهو غفلة

وكل حركة لا تكون في تعبد الله فهى فترة

فرحم الله عبدا جعل نطقه ذكراً ..

وصمته ذكراً ..

ونظره عِبَراً

وحركته تعبدا .. وسلم الناس من لسانه ويده »

هذا النهج الذى عرفه الزهاد، والمتصوفة فيما بعد .. حيث تحول الزهد والحب الإلهى إلى النزعة الصوفية التى عرفها تاريخ الاسلام فيما بعد .. هذا النهج الاسلامى الخالص المتمثل فى سلوكيات الرسول ، والخلفاء الراشدين، وبعض الصحابة، كان هو النهج الذي سلكه هؤلاء الذين ساروا في طريق الله .. ابتغاء رضوانه .. وابتغاء النور الذى يهديهم إلى عالم الروح، حيث مشاهدة مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

فقد كان من دعاء الرسول- صلى الله عليه وسلم - يوم الطائف :

أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر

الدنيا والآخرة، أن يحل علي غضبك أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»

★★★

عرفت رابعة إذن طريق الزهد والعبادة والحب عقب تحررها من رق سيدها، ولم تمارس أي سلوكيات منحرفة بعد هذا التحرر..

ولا أعرف كيف اهتدى الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه عن رابعة، أنها غرقت في الرذيلة بعد هذا التحرر من الرق، ثم تابت، وكان رد فعلها متطرفا كما كان فجورها متطرفا

والاستنتاج الذي توصل إليه الدكتور عبد الرحمن بدوى مجرد استنتاج لا يرقى إلى اليقين .

فهو يقول :

« لأن هذا العمل الفنى وما يقتضيه من ملامسات لابد أن يدفع بصاحبه إلى طريق الشهوات .. وأن رابعة فى هذه المرحلة من حياتها قد قطعت شوطا طويلا فى طريق الإثم، وغرقت فى بحر الشهوات، وإقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة.. وما كان يمكن رابعة أن تتطرف فى إيمانها وحبها لله، إلا إذا كانت تطرفت من قبل فى فجورها وحبها للدنيا »

ولا أعرف كيف توصل الدكتور بدوى لهذه النتيجة..

وكأنه لابد لكل من يعزف الناى أو يحترف الغناء، لابد أن ينحرف انحرافا جارفا فى دنيا الشهوات والملاذ !!

وإذا كنا قد عرفنا مدي رغبة (رابعة الجارفة) إلى الشوق والتوق والحزن من الله،

حتى وهى ترشف فى ذل العبودية، ! .. فكيف تترك لنفسها العنان بعد أن أصبحت تنعم بالحرية، ولا يجبرها أحد على ذلك .. وإنه من المنطق لامرأة جميلة .. تجيد العزف ةعلى الناى .. وتجيد الغناء ، أن تجد من يهبها من العطايا والهبات ما يعينها على الحياة، دون أن تنحرف الانحراف الحاد الذي أشار إليه الدكتور بدوى .

والذين رددوا مسيرة حياتها، أشاروا إلى إنها وهى ترسف في ظل العبودية، كانت روحها تتوق إلى ما عند الله .. حتى أنه عندما أجبرها سيدها أن تجالس الناس، هربت ذات مرة فى طريق البصرة .. وتوجهت بكل كيانها لله .. تناجى ربها أن ينقذها من الهوة إلى سيقت إليها .. إنها لا تريد وهى التى نشأت فى رعاية والد صالح .. وحفظت القرآن صغيرة أن تعيش فى مستنقع الشهوات .. إنها تدعو ربها قائلة :

رباه أنا غريبة ..

يتيمة .. أسيرة .. أكابد ألم العبودية ، وسوف أتحمل كل

شيء وأصير عليه، لكن غمى الأكبر هو أن أعرف : أراضٍ عنى أنت أم غير راضٍ ؟

إلهى :

« هذا ما أتوق إلى معرفته »

ويقول فريد الدين العطار الذي روي هذه الحكاية أنها سمعت هاتفا يقول لها :

« لا تحزنى .. ففي يوم الحساب يتطلع المقربون فى السماء إليك يحسدونك على ما تكونين فيه »

.. وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح ؟. فقد ردد رواة سيرتها العديد من هذه الحكايات التى إن دلت على شيء، فإنما تدل على أن لرابعة نفس تواقة إلى الله .. حتى وهى لا تملك من أمر نفسها شيئا .. فهل يعقل أن تتمادى فى الخطيئة عندما تحرر من العبودية . ؟!

والذين تحدثوا عن لحظة إفاقة سيدها من غيه وجوره عليها، وإرغامها على مالا تريد، كانت هذه اللحظة ، عندما نظر إلى فتحة من باب حجرتها وقنديل معلق فى سماء الحجرة، وسمعها وهى تدعوا ربها :

إلهى : أنت أعلم أن قلبى يتمنى طاعتك، ونور عينى فى

خدمة عتيك .. ولو كان الأمر بيدى ما انقطعت لحظة عن مناجاتك وخـدمـتك ، لكنك تركـتنى تحـت رحـمـة هـذا المخلوق القـاسـى من عبادك »

كانت مشكلة (رابعة) التى تعوقها عن الإنطلاق إلى الإبحار فى عالم العبادة والقرب من الله ، هـذا السيد القاسى التى رسفت تحت أغلاله .

فكيـف يجوز منطقـيا أن تغـرق نفسـها فـى بحـار الشـهـوات عندما تصبح حرة !

مهما يكن من شىء.. فقد وهـبت رابعة نفسها لعبادة ربها .. عندمـا اتخـذت لنفسـهـا مكانا للعبـادة .. غيـر إنهـا لم تنقطع عن ملاقاة زهاد عصرها الذين عرفوا فيها إنسانة تريد أن تعيش لله .. وفى الله .

★★★

وقد اختلفت الرواة- أيضـا- عن حياتها الخاصـة ، بعد أن غادرت دار (الرق والعبودية).. وواجهت الحياة بعد ذلك ، وهى ما تزال شـابة .. بالغة الجمـال.. أتزوجت رابعـة العـدوية أم ظلت بلا زواج طوال حياتها ؟

البـعض قـال إنهـا لم تتـزوج رغم العـديد مـن الرجـال الـذين تقدموا للزواج منها، بعد أن ذاع عنها الزهد والبعد عن الدنيا ؟

والبعض الآخر قال إنها تزوجت من رباح القيسي الزاهد الذى يمت إليها بصلة قرابة .. والذى وقف بجانبها، وشجعها على السير فى طريق الله.

ومن المدون عنه أنه كان شديد الخوف من الله، يزور المقابر للتأسى، فإذا ما ذكر الموت انطلقت عيناه بالدموع ..

ولكن من خلال الروايات المختلفة ، واستقراء هذه الروايات من خلال كتب التراث، يرجح القول أن رابعة تزوجت من رباح القبسي ..

وتقول الدكتورة سعاد على عبد الرازق، فى بحثها الممتاز عن (رابعة العدوية) .. وهى تناقش هذه المسألة - مسألة زواج رابعة من مختلف الزوايا :

من كل ما تقدم نستطيع أن ننتهى إلى رأى يكاد يقترب من اليقين - هو أن رابعة العدوية لم تخرج عن سنة الزواج - بل هي من واقع النصوص - قد تزوجت .. وفى رأيى أنها تزوجت من رباح القيسى، وأن رابعة هي زوجة (رباح) التى أشار إليها الكثير من المؤرخين، وأنها بسبب هذه الزيجة قد نسبت إلى القيسيين فاشتهرت (برابعة العدوية القبسية).

أما صمت مؤرخي النصوص عن ذكر اسم زوجها صراحة، فهذا مالم أصل إلى تفسيره - حتى الآن - وخاصة أنهم ذكروا

الكثير من الزاهدات والعابدات منسوبات إلى أزواجهن مثل : معاذة العدويه امرأة بصلة بن أشيم، وهى من هل البصرة، وعمرة الفارسية زوجة حبيب العجمى - وهو من شيوخ رابعة، ورابعة بنت إسماعيل زوجة أحمد بن أبى الحوارى .

ربما كان ذلك لأن رابعة كانت أشهر من أن تعرف منسوبة إلى زوج بعينه. ولذلك جاء ذكر زواجها تلميحا لا تصريحا »

مهما يكن من شيء .. فإن رابعة العدوية بزهدها وتقواها وحبها وشوقها للذات الإلهية ، أصبحت حديث الناس فى عصرها وفى كل العصور .

لقد عاشت طفولة بائسة، وشباب قضت جزءاً منه بعد أن وقعت فى الرق .. تعزف الناى وتغنى وتطيع سيدها فيما ذهب الرواة عنها فى حياة من اللهو والطرب والشراب .. ولكنها حتى فى هذه اللحظة كانت تتوق إلى ما عند الله .. إلى أن تحررت من رقها وهى فى ريعان شبابها وجمالها، وتوجهت إلى الله بكل كيانها إلى أن جاوزت الثمانين من عمرها .. !

وحين رحلت عن الدنيا فى سن متقدم، دفنت فى البصرة .. وظلت سيرة حياتها ، حديثا يروى فى مختلف الأجيال .. يرى قارئو سيرتها .

إنسانة وضعت أقدامها على الطريق العبادة السليمة متوسمة خطى الصالحين، وواضعة أسس مدرسة الحب الإلهى التى

سبقها فى الطريق نفسه، متصوفة كبار .. ترنموا بالحب الإلهى .. ولم يروا إلى هذا النور المقدس الذى يشع فى أعماقهم .. فيروا أن الحياة الحقيقية فى حب (الذات العليا) .. وأن الدنيا بما فيها ومن فيها لا تساوى عند الله جناح بعوضة .. !

سهروا ليلهم .. وصاموا نهارهم، وأضنوا أجسادهم .. حتى يصلوا إلى السعادة التى يتوقون إليها .. وهذه السعادة التى يستشعرونها بأرواحهم لا تعادلها سعادة أخرى .. إنه الشوق إلى الله .. الذى لا يعرفه إلا من يعيش حياتهم .. ويشعر بشعورهم .. ويرتفعون من خلال هذا الحب المقدس إلى مدارج النور .. فيروا ما لا يرى الآخرون .. ويشعرون بما لا يشعر به بقية الناس ..

هذا الحب الذى ترنم به بعد ذلك محى الدين بن عربى »

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمانى .

وهذا الحب الذى عبر عنه عمر بن الفارض- أيضا- .. تعبيرا يهز المشاعر، بما فيه من حس مرهف، وشحنات عاطفية عميقة .. منها قوله :

ومن مذهبى فى الحب مالى مذهب

وإ ن ملت يوما عنه فارقت ملتى

وإن خطرت لى فى سواك إرادة

على خاطرى سهوا قضيت بردتى

و.. ما أجمل الإبحار فى بحار الصوفية .

• رابعة فى محراب الزهد والتعبد•

«ما عبدت الله خوفا من ناره .. ولا
طمعا لجنته فأكون كالأجير السوء إن
خاف عمل .. بل عبدته حبا له وشوقا
إليه»

رابعة.

كان من الممكن أن تعيش رابعة حياة الترف والنعيم وكان من الممكن أن تكون من صواحب الثروات .. بما وهب لها من جمال الصوت، والقدرة على الغناء، بجانب جمال جسدها .. كان من الممكن أن تعيش كما يحلوا لها أن تعيش ، فما أكثر من ينبهرون بما كانت تتمتع به رابعة .. ويقدمون ما تريده من مال أو ثروة .. فى نظير أن يجلسوا إليها ويستمعوا لها .

ولكن ما كان لإنسانة تحمل الضمير الذي تحمله رابعة، والتكوين النفسى الذى رسمت خطوطه طفولتها فى ظل بيئة متدينة .. ما كان لمثل هذه الإنسانة أن تنحرف عن الطريق السوى، خاصة بعد أن تحررت من الرق، وبعد أن أصبح قرارها فى يدها

والذين قالوا إن رابعة انغمست فى حياة الشراب والمجون بعد أن تحررت ينقصهم منطق العقل !

فكيف يجوز لإنسانة عرفت طريقها إلى المساجد، وعرفت الصالحين والزهاد أثناء رقها، وكانت نفسها تتوق إلى حياة الطهر والنقاء، أن تنحرف إلى طريق الغواية والشيطان، حتى إذا ما انغرست فى طريق الاشواك ما كان لها أن تنغرس ، عادت إلى رشدها تطلب طريق الهدى والرشاد !

المنطق لا يقول بهذا .

المنطق يقول إن حياة رابعة أثناء العبودية لم تكن ملكا لها، بل ملكا لسيدها، الذى أرغمها على الغناء وعلى الشراب، فإذا ما تحررت من رق العبودية، فقد آن الآوان، أن تنسلخ نهائيا عن حياة الفجور، وأن تتجه بكل كيانها لله، وأن تنغمس فى الحياة الروحية إلى أقصى المدى .. وبانغماسها فى الحياة الروحية ترقى مشاعرها، ويرهف حسها .. وتتلقي من الفيوضات الربانية ، ما تجد فيه الأنس بالله .. وتشعر بتلك السعادة التى قال عنها أحد الصوفية .

- لو علم الملوك بما نحن فيه لحاربونا عليه بالسيوف. .إن طريق العبادة هو طريق النور .. طريق القرب من الله .

طريق الإحساس بجمال الطاعة ، وجلال الإيمان، وروعة التقوى .

وهذا الطريق دخلت فيه رابعة .

وكـان لابد أن تمضى فى هذا الطريق إلى حيث تقودها شفافية الروح . حتى أصبح شاغلها الحب الإلهي.. والبداية هي التوبة .

إنها تريد أن تقطع كل علاقات الماضى، تريد أن تهيل عليه تراب النسيان .

إنها توبة نصوحا لله.. أن تسير فى طريق الله، وأن تنسى تلك السنوات التى عاشتها فى ظل سيد مستبد طوعت له نفسه أن يجعلها تسير فى طريق لا ترغبه ولا تريده .

وهى الآن حرة طليقة لا تخضع لعنف سيد، ولا لقسوته ، ولا لحقوق فرضت عليها من قبل هذا السيد .. إنها وحدها مع الله .. فليكن طريقها طريقا جديدا .. تخلص فيه لله وحده .. تعبده .. وتتوب إليه .. وتتوسل إليه أن يطهر روحها مما علق بها من أدران .. وأن تسمو بروحها إلى الملكوت .

وأن تفكر في خلوتها ما طاب لها التفكير فى كون الله الفسيح ..

والتأمل فى مخلوقات الله يدفع الإنسان إلى إدراك عظمة الخالق العظيم .. فلا يملك الأنسان له إلا الحب وهذا ما نجده عند رابعة .

عندما تابت، وتفرغت للزهد والعبادة، شعرت بما يشعر به العابدون من راحة النفس، وطمأنينة البال، ونقاء السريرة.

وكلما شعرت بتلك السعادة التى لا يعرفها إلا من يسلك طريق الله، زاد إقبالها على العبادة .. إنها تريد أن تشرب .. وتشرب من هذا الكأس الربانية .. هذا الكأس الذى يصعب وصفه.. بل إن أحدهم وهو عمر بن الفارض عندما جاء بعد ذلك بعدة قرون، كان وصفه رغم ما فيه من رقة المشاعر، غامضا .. تشعر ما فيه من جمال وجلال بدون أن تفهمه فهما حرفيا .. إنك تستشعر عمق هذا الحب لله .. وإن صعب شرحه .. يقول ابن الفارض واصفا هذه النشوة .. أو هذه الخمرة الإلهية :

يقولون لي صفها فأنت بوصفها

خبير، أجل عندى بأوصافها علم.

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوًى

ونور ولا نار وروح ولا جسم

تقدم كل الكائنات حديثها

قديما ولا شكل هناك ولا رسم

وهامت بها روحى بحيث تمازجا

اتحادا ولا جرْم تخلله جرم

ولا قبلها قبل ولا بعد بعدها

قَبليَّةُ الأبعــــاد فهى لها ختـــم

ويشرح هذه الأبيات الدكتور شوقى ضيف :

وابن الفارض يصرح أن المدامة التى شرب من دنها ليست مقيدة بالمادة وأشكالها من ماء ونار وجسم، بل هى نور روحانى صاف، نور يتقدم كل الأكوان بكائناتها ومظاهرها، قبل أن يتخلق أى شىء وأى رسم وأى وجود .

هو نور كانت تمتزج به حينئذ وتتحد أقباس الأنبياء وتابعيهم من المتصوفة ، حين كانت لا توجد سوى الحقيقة الإلهية متحدة بالحقيقة المحمدية .

أو بعبارة أخرى حين كان لا يوجد سوى الله مدبر الكون فيما بعد ومنشئه ومبدعه بكل ما فيه من جواهر وأجرام وأجسام . حين كان منفردا بوجوده الأزلى الذى لا سابق له ولا نهاية. فهو الأول والآخر،. وهو الأزلى الخالد، أصل كل الكون ، ونبع كل الوجود



والتوبة تبدأ بالرجاء مما عند الله

ثم الخوف من ألا تقبل هذه التوبة .

ويرجع ذلك الفهم إلى الحديث التى روته السيدة عائشة- رضى الله عنها- كما ورد فى المسند والترمذى :

قالت عائشة : قلت : يا رسول الله ، قول الله :

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَة ﴾

أهو الذى يزنى ويشرب الخمر ويسرق ؟

قال : لا يا ابنة الصديق . ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق، ويخاف ألا يقبل منه.

كانت رابعة في بداية توبتها شديدة الخوف من الله، إلى أن أنست به، وأحبته شوقا ، وشعرت بجلاله

ويحدثنا الإمام القشيري فى (باب التوبة)

التوبة أول منزل من منازل السالكين، وأتول مقام من مقامات الصالحين، وحقيقة التوبة فى لغة العرب الرجوع . يقال تاب أى رجع .

فالتوبة الرجوع عما كان مذموما فى الشرع إلى ما هو محمود فيه .

وقال النبى -صلى الله عليه وسلم :

« الندم توبة »

فأرباب الأصول من أهل السنة قالوا :

شرط التوبة حتى تصح ثلاثة أشياء :

الندم علي ما عمل من المخالفات، وترك الزلة في الحال ، والعزم على ألا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي . فهذه الأركان لابد فيها حتى تصح توبته

ويرى أن للتائبين (صفات وأحوال) هي من خصالهم بعد ذلك من جملة التوبة لكونها من صفاتهم لا لأنها من شرط صحتها . وإلى ذلك تشير أقاويل الشيوخ ومعنى التوبة .

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله يقول :

التوبة على ثلاثة أقسام :

أولها التوبة وأوسطها الإنابة ، وآخرها الأوبة.

فجعل التوبة بداية ، والأوبة نهاية والإنابة واسطهما، فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة .

ومن تاب طمعا فى الثواب فهو صاحب إنابة

ومن تاب مراعاة للأمر لا رغبة فى الثواب ولا رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة .

ويقال -أيضا- التوبة صفة المؤمنين قال الله تعالى:

- وجاء بقلب منيب

والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين قال الله -تعالى-

-« نعم العبد إنه أواب »

ويورد لنا الإمام القشيرى أقوال الصوفية فى هذا المجال فيقول :

وسئل ذو النون المصرى عن التوبة فقال :

توبة العوام من الذنوب .

وتوبة الخواص من الغفلة .

وقال النووى : التوبة أن تتوب من كل شىء سوى الله -عز وجل- ويورد ما قاله الرجل لرابعة :

- إنى أكثرت من الذنوب والمعاصى فلو تبت هل يتوب علىَّ.

فقالت : لا .. بل لو تاب عليك لتبت .

★★★

ويحدثنا عن الخوف .

قال الله- تعالى- : « يدعون ربهم خوفا وطمعا »

ويورد حديثا بسنده عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقول :

لا يدخل النار من بكى خشية الله -تعالى- حتى يلج اللبن فى الضرع . ولا يدخل غبار في سبيل الله ودخان جهنم فى منخرى عبد أبداً »

ويورد العديد من أقوال الصالحين مثل

قال ابن الجلاد :

الخائف : من تأمنه المخلوقات.

وقيل ليس الخائف الذى يبكى ويمسح عينيه إنما الخائف من يترك ما يخاف أن يعذب عليه .

وقيل للفضيل :

- ما لنا لا نري خائفا ؟

فقال :

لو كنتم خائفين لرأيتم الخائفين . إن الخائف لا يراه الخائفون . وإن الثكلى هى التى تحب أن ترى الثكلى

وقال يحيى بن معاذ :

مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة .

وقال أبو القاسم الحكيم :

- من خاف من شيء هرب منه، ومن خاف من الله- عز وجل -هرب إليه .

★★★

من هنا نرى أن رابعة العدوية تابت، وزهدت الدنيا، وعاشت حياتها خائفة من عقاب الله، إلى أن أنست فى نفسها القرب من الله، فقد تابت توبة نصوحا ..

وعرفت الدموع طريقها إلى عينيها خوفا وطمعا فيما عند الله .

إلى أن أرتقت فى درج (الخوف) كما تقول الدكتورة سعاد عبد الرازق عنها درجة درجة حتى تخطت وحشة الخوف من توقع العقوبة على مجرى الأنفاس .

ثم تخطت- أيضا- درجة الخشية التى هى أحق من الخوف، أو التى خص بها الله تعالى سبحانه وتعالى عباده من العلماء، وهي خوف مقرون بمعرفة وكذلك مرت (بالرهبة) و (الوجل) وهو رجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته حتي وصلت إلي درجة (الهيبة) و (الإجلال) وهى خوف مقارن للتعظيم والإجلال

وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة . وقد وصف الإمام (الهروي الأنصارى)أصحاب هذه الدرجة (درجة الخاصة) قال :

وليس فى مقام أهل الخصوص وحشة الخوف ، إلا هيبة الجلال ، وهى أقصى درجة يشار إليها فى غاية الخوف .

وشرح الإمام ابن القيم هذا الكلام بقوله :

« يعنى أن وحشة الخوف إنما تكون مع الانقطاع والإساءة، وأهل الخصوص أهل وصول إلى الله- تعالى- وقرب منه . فليس خوفهم خوف وحشة ، كخوف المسيئين المنقطعين، لأن الله- عز وجل- معهم بصفة الإقبال عليهم، والمحبة لهم، وهذا بخلاف هيبة الجلال، فإنها متعلقة بذاته وصفاته.

وكلما كان عبده به أعرف وإليه أقرب. كانت هيبته وإجلاله فى قلبه أعظم ، وهى أعلى ممن درجة خوف العامة .

يعنى أن أكثر ما تكون (الهيبة) أوقات المناجاة، وهو وقت تملق العبد ربه ، وتضرعه بين يديه، واستعطافه، والثناء عليه بآرائه وأسمائه وأوصافه ، أو مناجاة بكلامه . (هذا هو مراد القوم بالمناجاة)



لم يكن غريبا إذن أن تناجى رابعة (ربها) .. وقد وصلت إلى هذه الدرجة من الحب الإلهى، بعد أن جاوزت الخوف :

قالت رابعة فى مناجاتها لربها :

« إلهى إذا كنت أعبدك خوفا من النار فاحرقنى بها، أو طمعا فى الجنة فحرمها على، وإذا كنت أعبدك يا إلهى إلا لأجلك ، فلا تحرمنى من مشاهدة وجهك »

لقد عبرت رابعة بحور الحياة الروحية، واقتنعت بالرضا بقضاء الله وقدره.. لم تتبرم من مرض أصابها .. ولا اشتكت من فقر ألم بها .. بل كانت صابرة على ما يصيبها ، لأنها كانت ترى أن ما يصيبها لم يكن ليخطئها، وما أخطأها لم يكن ليصيبها .

ما أكثر ما بكت من خشية الله .

وما أكثر ما أحست بالطمأنينة والأمان فى رحاب ربها .

وتجاوزت الخوف والرجاء إلى الحب .

الحب أصبح كل حياتها ..

تتغنى به ليل نهار

إنها لم تحب إنسانا فانيا ، ولكنها أحبت الخالق جل علاه .

أحبته بكل كيانها .. ورضيت من الحبيب بكل ما يجود به عليها، وهى شديدة الاقتناع بأن ما عند الله لا يساويه كل كنوز الدنيا

ويرى شيخ الاسلام مصطفى عبد الرازق أن رابعة العدوية

أول من تغنى فى رياض الصوفية بنغمات الحب الإلهى شعرا ونثرا، ولم يكن طريق المحبة معبدا قبله.

★★★

عاشت رابعة بعد أن استقر قلبها على الحب الإلهى وهى تعبر عن ذات نفسها بأن هذا الحب من أجل الحب .. لا حبا فى الجنة .. ولا خوفا من نار .. ولكن حبا للذات العلية .. أو كما قالت لسفيان الثورى .. عندما قال لها : لكل عقد (عقيدة) شريطة .. ولكل إيمان حقيقة .. فما حقيقة إيمانك ؟

قالت : ما عبدته خوفا من ناره، ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء إن خاف عمل .. بل عبدته حبا له وشوقا إليه

★★★

عاشت رابعة فترة هامة من حياتها فى العبادة .. زاهدة فى الدنيا وما فى أيدى الناس .. لا تبغى شيئا سوى رضوان ربها .. ومنتهى أملها أن تكون قريبة من الله .

تركت الدنيا ومشاغلها .

وأفرغت قلبها من التعلق بأى شىء إلا عبادة ربها .وكان لابد أن يدخل طمأنينة الإيمان لقلبها .. وأن تعبر جسور الخوف .. فزاد شوقها إلى الله مع ازدياد عبادتها لله .. وكان أن شعرت بالحب الإلهى يغمر كل كيانها ..

لقد مـلأ هذا الحب كل ذرة فى جسمها ..

ومـلأ هذا الحب روحها .

ولا يشعر بهذا الحب إلا من يعانيه :

إنه ليس كحب إنسـان لإنسـان .. بل هو حب من نوع آخـر .. حب لصاحب المنن .. وصاحب العطاء قيوم السماء والأرض .. الذى يعرف كل شىء فى خلقه .. ويعلم ما يجرى فى القلوب .. فهو علام الغيوب .. وهو الذى لا يعذب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء .. وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ..

مـلأ الحب قلبها .. فشعرت كأن هذا الوجود على سعته لا يسعها .. شعرت بموسيقى الروح .. وجلال الإيمان .. وعمق النشوة بالحب الإلهى ..

إنها المرحلة التى ضمت حياتها .. مرحلة الحب لله .. وفى الله .

• الحب الإلهى •

تعصى الإله وأنت تظهر حبه

هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته

إن المحب لمن يحب مطيــع.

• الحب الإلهى •

دخلت رابعة إلى مرحلة الحب الإلهى ..

إنها لا يشغلها شاغل عن ذكر الله ..

ولا يشغلها شاغل عن الله .

.. إنها لا تحس إلا بجلاله - سبحانه وتعالى ..

فهي تغيب عمن حولها لانشغالها بالذات العلية .

أليست هى القائلة :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى

وأبحت جسمى من أراد جلوسه

فالجسم منى للجليس مؤانسى

وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسه

.. فهى تتحدث بقلبها إلى الله.

ولا تشعر بمن يجلسون إليها لأنها مشغولة عنهم بالحد
الإلهية .

فحبيب قلبها وأنيسها هو الله -عز وجل .

ويحدثنا الدكتور أبو الوفا التفتازاني شيخ الطرق اا
وأستاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف بجامعة القاهرة
رابعة العدوية، وتفسير الإمام الغزالى لأبياتها المشهورة :

أحبك حبين : حب الهوى

وحبا لأنك أهل لذاكـ

فأما الذى هو حب الهوى

فشغلى بذكرك عمن سواكـ

وأما الذى أنت أهل له

فكشفك لى الحجب حتى أراكـ

فــلا الحــمــد فـى ذا ولا ذاك لـى

ولـكن لـك الحـــمـــد فـى ذا وذاك

وقد فسر الإمام الغزالى فى (الإحياء) هذه الأبيات فقال :

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها، وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة، وبحبه لمن هو أهل له . الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحبين وأقواهما . ولذة مطالعة جمال الربوبية هى التى عبر عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، قال حاكيا عن ربه- تعالى :

« أعددت لعبادى الصالين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر »

وفى رأينا أن رابعة قسمت الحب الإلهى فى هذه الأبيات إلى قسمين :

الأول : هو ما تسميه (حب الهوى) وقد عرفته فى الشطر الثانى من البيت الثاني بأنه (شغلها بذكر الله عمن سواه)

والثاني : هو ما تسميه (حب الله الذي هو أهل له)

وهو كشف الله لها الحجب حتى تراه .

ولكن يعرض هنا سؤال وهو :

- كيف يكون الاشتغال بذكر الله عمن سواه حبا للهوى مع أنه مقام رفيع للغاية ؟

الحقيقة هى أن ما تقصده رابعة العدوية بحب الهوي على هذا النحو لا يصبح واضحا إلا على ضوء الحديث القدسي الذى يحكى فيه الرسول عن رب العزة قوله :

من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما يعطى السائلين

فهى تريد أن تقول إن اشتغالها بذكر الله عن سؤاله ، وهو حب الهوى شىء معلول -أيضا- لأن الله وعدها كما وعد غيرها من المؤمنين على ذلك بإعطائها أفضل ما يعطى السائلين، وهى لا تتطمع ولا تبغى أن تتطمع فى ذلك إطلاقا، بل هى تريد حبا منزها عن كل غرض ، مبرأ عن كل حظ من حظوظ النفس يمكن تصوره، فهى بذلك قد تخطت مقام سؤال الله أو الطلب منه، ثم تخطت مقام الاشتغال بذكر الله عن مساءلته- أيضا- لأنه معلول. واستقرت بعد ذلك كله فى مقام حب الله بما هو أهل له ، وذلك حين انكشفت عنها الحجب لترى جمال الله.

وعندئذ تسلم لله- تعالى- التسليم المطلق برؤية المنعم الوحيد عليها في البيتين الأول والثانى .

ويخلص الدكتور أبو الوفا التفتازانى من ذلك إلى أن رابعة

العدوية كانت تمثل فى القرن الثانى الهجرى تيار الزهد القائم على أساس حب الله -تعالى-، على حين كان حسن البصرى أبرز من مثل الزهد القائم على أساس الخوف من الله .

وإلى رابعة العدوية يرجع فى الحقيقة الفضل فى إشاعة لفظ الحب عند من جاء بعدها من الصوفية بعد أن لم يكن طريق الكلام في الحب قبلها ممهدا

ويقول أيضا :

وفى رأينا أنها لك تكتنف بإشاعة لفظ الحب بل هى أول من تعرض بالتحليل لمعناه، وبيان ما هو قائم منه علي معنى الإخلاص، وما هو قائم منه على طلب الأعراض من الله.

وفى رأينا- أيضا- أن هذا النوع من التحليل، الذى لا يخلو من دقة، قائم عندها على الذوق والمعاناة المباشرة أساسا .

ويضاف إلى ما تقدم أن رابعة قد تكلمت فى كثير من المعانى الصوفية الدقيقة في غير موضوع الحب كالكلام فى الزهد والخوف والتواضع وتصحيح الأعمال والرياء وعدم التشاغل بالخلق والتوبة والرضا .. غير ذلك مما روى عنها وعرضنا بعضه فيما سبق »



رابعة إذن كانت نقطة تحول هامة فى الحياة الروحية .. وقد مهدت لمن جاء بعدها

من الصوفية أن يكون الحب الإلهى مما يترنم به الصوفية فى كل العصور وهذا الحب الذى كان سمة من سمات هذه العابدة الزاهدة .. جعل أهل عصرها من كبار الزهاد من كان يذهب إليها ، معترفا بمكانتها الروحية من أمثال سفيان الثورى، حتى أن من الرواة من روى أن سفيان الثورى كان يطلب منها أن تعلم مما أفادها الله من طرائف الحكمة.

وأنها كانت تقول له :

نعم الرجال أنت لولا أنك تحب الدنيا . !

• بين الحب والخوف •

ولكن لماذا نشأت حركة الزهد فى الاسلام

الإجابة علي ذلك سهلة وبسيطة للغاية .. فقد رأى البعض في زهد الرسول -عليه الصلاة والسلام- وبعض الصحابة قدوة ومثالا .

والبعض الآخر هاله الأحداث التى جرت فى العالم الإسلامى بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

فقد استشهد الفاروق عمر بن الخطاب وكان مثالا للإنسان الكامل فى عدله وتقواه، وزهده فى الدنيا ..

فهو وإن كان الخليفة الذى تحققت على يديه الانتصارات المذهلة على الفرس والروم، وتدفقت فى عهده الغنائم والأموال .. وانتعشت الحالة الاقتصادية .. رغم كل هذه الإنجازات فقد راح ضحية مؤامرة دنيئة عندما طعنة أبو لؤلؤة المجوسى.

كما هال الناس استشهاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، والذى تحقق فى عهده الكثير من الانتصارات البشرية، وفتحت

مساحات شاسعة من الأرض فى آسيا والشمال الإفريقى .. ولكن حدثت الفتنة الكبرى وقتل ثالث الخلفاء الراشدين وهو يقرأ القرآن الكريم .. ولم يأبه قاتلوه بمنزلته عند رسول الله، وأنه ذو النورين، والذى تبرع بماله فى سبيل الاسلام ..

قتلوه مظلوما ، ودفن في ظروف صعبة .. كما هال الناس مقتل الإمام على بن أبي طالب، بعد أن عانى الكثير حتى من أتباعه.. !

كما قتل الإمام الحسين فى كربلاء، بعد أن استدرجه أهل العراق إليهم ، ثم تركوه وحده يواجه دولة بنى أمية ، ولم يكتفوا بالغدر به وقتله ، بل مثلوا بجثته .. كل هذه الأمور ، جعل البعض يرى أن الحياة لا تساوى شيئا .. وأن الأفضل لهم الإقبال على الله، بالعبادة والتقوى والزهد .

كما رأى البعض الترف الزائد الذي يتمتع به حكام بنى أمية وبعض التجار .. فاقتنوا الرقيق .. وبنوا القصور .. وانتشر اللهو والغناء والاستمتاع بكل ملاذ الحياة .. فكان رد الفعل الطبيعى أن يكون هناك علي الجانب الأخر من يزهد فى مثل هذه الحياة المحزنة، وينغمس فى العبادة، ويتجه بكل كيانه إلى الله .. ومن هنا كان شعار هذه المدرسة الزهد والخوف من الله ..

وكانوا يستقون من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ما يبلور وجهة نظرهم..

أو على حد تعبير الإمام الغزالى ، وهو يحدثنا فى (الإحياء) عن فضيلة الخوف

والترغيب فيه :

« اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار ، وتارة بالآيات والأخبار .

أما الاعتبار فسبيله أن فضيلة الشيء بقدر غنائه فى الإنضاء إلى سعادة لقاء الله تعالى -فى الآخرة .

إذ لا يتصور سوى السعادة، ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه . فكل ما أعان الله عليه فله فضيلة ، وفضيلته بقدر غايته . وقد ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله فى الآخرى إلا بتحصيل محبته والأنس به فى الدنيا . ولا تحصل المحبة إلا بالمعرفة. ولا تحصل المعرفة إلا بداوم الفكر

. ولا يحصل الأنس إلا بالمحبةودوام الذكر ولا تتيسر المواظبة على الذكر والفكر إلا بانقطاع حب الدنيا من القلب، ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات الدنيا وشهواتها . ولا يمكن ترك المشتهيات إلا بقمع الشهوات. ولا تنقمع الشهوة بشىء كما تنقمع

بنار الخوف . فالخوف هو النار المحرقة للشهوات ، فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات .

وبقدر ما يكف عن المعاصى ويحث على الطاعات . ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق .

ويقول الإمام الغزالى أيضا :

وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة، والورع، والتتوق والمجاهدة، وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى .

وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار، فما ورد فى فضيلة الخوف خارج عن الحصر، وناهيك دلالة علي فضيلته جمع الله -تعالى- للخائفين، الهدى ، والرحمة، والعلم،. والرضوان، وهى مجامع مقامات أهل الجنان .

قال الله تعالى :

﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ الأعراف ١٥٤

وقال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فاطر ٢٨

ووصفهم بالعلم لخشيتهم .

وقال عز وجل :

﴿ رَضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾ البينة ٨

وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف ، لأن الخوف ثمرة العلم .

ولذلك

جاء خبر موسى- عليه أفضل الصلاة والسلام-، وأما الخائفون فإن لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه فانظر كيف أفردهم الله بمرافقة الرفيق الأعلى، وذلك لأنهم العلماء ، والعلماء لهم رتبة مرافقة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم .

ولذلك لما خير الرسول الله- صلى الله عليه وسلم -فى مرض موته بين البقاء فى الدينا وبين القدوم على الله -تعالي- فكان يقول :

(أسألك الرفيق الأعلى).

ويورد الإمام الغزالى قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

«رأس الحكمة مخافة الله »

وقوله عليه الصلاة والسلام :

لابن مسعود : إن أردت أن تلقانى فأكثر من الخوف بعدى »

وقال الفضيل :

من خاف الله دله الخوف على خير.

وقال الشبلى- رحمه الله :

ما خفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة ما رأيته قط

وقال يحيى بن معاذ :

ما من مؤمن يعمل سيئة إلا ويلحقها حسنتان : خوف العقاب ورجاء العفو ، كثعلب بين أسدين.

ويورد الإمام الغزالى أمثلة كثيرة على فضيلة الخوف منها قوله عليه الصلاة والسلام :

قال الله عز وجل : « وعزتى وجلالي لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين. فإن أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة، ومن خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة

وقال -صلى الله عليه وسلم :

من خاف الله - تعالى - خافة كل شىء .. ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء »



فالخوف الذى اعترى الصالحين في عهد الرسول والتابعين ، نابع مما وجدوه فى سنة خاتم الأنبياء والمرسلين .. ورابعة العدويه بعدأن عاشت حياة القصور، وحياة الترف .. وعرفت أن طريقها ليس هو هذا الطريق .

وأن حياتها لا ينبغى أن تهدر فى الشراب والغناء، وكانت لها نفس تواقة لما عند الله منذ نعومة أظافرها .. ثم ندمت ، وتابت ، وزاد زهدها وخوفها عندما تحررت من رق العبودية ، وأصبح أمر نفسها فى يدها .. واستقرت روحها فى مقام الحب ، وجعلت هذا الحب .. الحب الإلهى .. هو أملها و،منتهاها فإن هذا الحب لم يأتى من فراغ .. لأنه على حد تعبير الإمام الغزالى : فإن المحبة لله هى الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات . فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق، والأنس، والرضا وأخواتها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالتوبة والصبر والزهد وغيرها .

ومن أجل ما كتبه الإمام الغزالى فى هذا المجال ما كتبه عن (شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى)

نسوق ما قاله الإمام الغزالى، لأن هذا يقربنا إلى رؤية رابعة

العدويه للحب، أو يقربنا إلى هذا الحب الذى توصلت إليه رابعة، بالزهد والتقوى والعبادة، وما تلقته من زهاد عصرها الذين عرفتهم وعرفوها عن قرب .. وقد تكون رابعة لم تدرس الشريعة كما درسها الإمام الغزالى .

وربما -أيضا - لم تكن على دراية أو علي تعمق بما جاءت به الشريعة فى هذا المجال .. ولكنها بلا شك وصلت بالإلهام ، إلى هذه الدرجة من الحب الذى ينشدها الاسلام

يقول الإمام الغزالى :

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله -تعالى- ولرسوله -صلى الله عليه وسلم- فرض . وكيف يفرض ما لا وجود له . وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة نبع الحب وثمرته ، فلابد وأن تقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من أحب ويدل على إثبات الحب لله - تعالي - قوله عز وجل :

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ المائدة ٥٤

وقوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة ٦٥ (١)

وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاني فيه .

وقـد جـعل رسـول الله ﷺ الحب لله من شـرط الإيمان في أخبار كثيرة، إذ قال أبو رزين العقيلى :

- يا رسول الله ، ما الإيمان ؟

قال :

أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما »

وفى حديث آخر :

« لا يؤمن أحـدكم حـتى يكون الله ورسـوله أحب إليـه مما سواهما »

وفى حديث ثالث

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين »

وفى رواية : ومن نفسه

كيف وقد قال الله تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ... ﴾ الآية التوبة ٢٤

إنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار .

وقد أمر رسول الله- صلى الله عليه وسلم- بالمحبة فقال :

« أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة وأحبونى لحب الله إياى »

ويروى أن رجلا قال يا رسول الله إنى أحبك . فقال -صلى الله عليه وسلم- : استعد للفقر فقال إنى أحب الله -تعالى- . فقال : استعد للبلاء

وعن عمر -رضى الله عنه- قال : نظر النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به، فقال النبى- صلى الله عليه وسلم :

انظروا إلى هذا الرجل الذى نور الله قلبه لقد رأيته بين أبوين يغذوانه بأطيب الطعام والشراب فدعاه حب الله ورسوله إلي ما ترون »

وفى الخبر المشهور أن ابراهيم -عليه الصلاة والسلام- قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله؟

فأوحي الله- تعالى- إليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه.

فقال : يا ملك الموت الآن فاقبض . وهذا لا يجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه، فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه، ولم يكن له محبوب غيره يلتفت إليه .

وقد قال نبينا- صلى الله عليه وسلم- فى دعائه :

« اللهم ارزقنى حبك وحب من أحبك وحب ما يقربنى إلى حبك. واجعل حبك أحب إلىَّ من الماء البارد»

وجاء أعرابى إلى النبى -صلى الله عليه وسلم- فقال :

يا رسول الله متى الساعة ؟

قال : ما أعددت لها ؟

فقال : ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ، إلا أنى أحب الله ورسوله .

فقال له رسول الله- صلي الله عليه وسلم -: المرء مع من أحب .

قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرحهم بذلك .

وقال أبو بكر الصديق- رضي الله عنه -: من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا، وأوحشه من جميع البشر .

وقال الحسن : من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل فإذا تنكر حزن .

وقال أبو سليمان الدرانى : إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه، فكيف يشغلون عنه بالدنيا .

ويروى أن عيسي -عليه السلام -مر بثلاثة نفر وقد نحلت أجسادهم، وتغيرت ألوانهم فقال لهم :

ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟

فقالوا: الخوف من النار .

فقال : حق على الله أن يؤمّن الخائف .

ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين .. فإذا هم أشد قولا وتغيرا فقال :

- ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟

قالوا : الشوق إلى الجنة

فقال : حق علي الله أن يعطيكم ما ترجون .

ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين، فإذا هم أشد قولا ونفيرا ، كان على وجوههم المرئى من النور

فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟

قالوا : نحب الله - عز وجل ..

فقال : أنتم المقربون .. أنتم المقربون .. أنتم المقربون .

★★★

الحب الإلهي إذن غاية الصالحين .

وليس بدعة .. أو اختراع .

ولكن كيف الوصول إلى الحب ؟

الوصول إلى الحب الإلهى ينبع من اتباع ما أحل الله ، والبعد

عما حرم الله، بالإكثار من قراءة القرآن والتقرب إليه- سبحانه- بالنوافل

ومن هنا كانت رابعة تقول :

« إن ثمرة العلم الروحى هى أن تصرف وجهك عن المخلوق كما توجهه إلى الله الخالق وحده، لأن المعرفة هى معرفة الله »

وكانت تناجي ربها بقولها :

إلهى : عرفنى نفسك، فإنى إذا عرفتك خفتك. ومحال أن يعصيك من يخافك .

وما أورده الرواة عنها وهى تناجى ربها - عز وجل :

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر
وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك العزم فالكل هين
وكل الذى فوق التراب تراب !

وتقول الدكتورة سعاد عبد الرازق فى كتابها (رابعة العدوية بين البكاء والغناء):

إن مقام المحبة إذن هو مقام رابعة الأصيل، وتاج نهجها الروحى الكبير .

سئلت رابعة : ما حقيقة إيمانك ؟

فقالت : ما عبدته خوفا من ناره ، ولا طمعا فى جنته فأكون كالأجير السوء إن خاف عمل، بل عبدته حبا له وشوقا إليه »

إن فى محبة رابعة إصرارا وإجلالا وتعظيما لم يسبق له مثيل، لقد جردت رابعة العلاقة بين العبد وربه، فلم يعد فيها رغبة ولا رهبة، لا رغبة فى جنه ولا رهبة من نار. إنما الرغبة عندها كانت فى المشاهدة والوصل والقرب من الذات الإلهية .. والرهبة والخوف، كانت من عدم الرضا والبعد والصد عن الحضرة الإلهية .. وهى لا تكترث عما فى القرب واللقاء والمشاهدة، ولا بزمانه ، سواء أتم لها ذلك فى الدنيا أم فى الأخرة، فى الجنة أم في النار .. إنما كان جل اهتمامها أن تكون بجوار الحبيب .

ولذلك كان ردها حين سئلت : كيف رغبتك فى الجنة ؟

فقالت : الجار ثم الدار .

ويعلق الإمام الغزالى على قولها هذا بأنها (بينت أنه ليس فى قلبها إلتفات إلى الجنة بل رب الجنة)

ويقول أيضا :

(فللعارفين فى معرفتهم وفكرتهم، ومناجاتهم لله- تعالى- لذات، لو عرضت عليهم الجنة فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة، ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والمشاهدة ..

فإن من يحب الله مثلا لكونه محسنا إليه منعما عليه، ولم يحبه لذاته ضعفت محبته، إذ تتغير بتغير الإحسان، فلا يكون حبه فى حاله البلاء كحبه فى حالة الرضا والنعماء .

وأما من يحبه لذاته، ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته ، فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه، فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس فى محبته، والتفاوت فى المحبة وهو السبب للتفاوت فى سعادة الآخرة ولذلك قال- تعالى- ﴿ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾

فحب رابعة لربها هو شغلها الشاغل وهو الذى ملأ قلبها ، فلم يبق فيه متسع لغيره، وصار مستغرقا استغراقا كاملا فى محبوبها »



لقد عرفت رابعة طريقها إلى الله .

وأيقنت أن هدف حياتها هوحب الله .. وحب الله هدف فى ذاته .. وعن طريق هذا الحب قد وقر في قلبها وأصبح هو سعادتها فى الدارين، فلم تعد تخشي النار، أو تشتاق إلى الجنة ، فاشتياقها لله، والله لا يحرق بناره من أحبه، وعرف الطريق إليه .. رحمة الله تسبق غضبه، ورحمة الله تسع كل شىء .

فما بالك بمن امتلأت قلوبهم بهذا الحب.. بهذا القبس النوراني .

لقد أصبحت هذه الرؤيا مدرسة .. يتبعها كل من هام بالحب الإلهى .. وعرف أنه هو المبتغى والأمل

فما دام حب الله فى حنايا القلب .. فكل شىء يهون.. وأنه لم يعد يشغل الإنسان شىء..

فكل ما فى الدنيا إلى زوال ..

وكل إنسان إلى التراب ..

ولا يبقى للإنسان إلا ما قدمت يداه .. وما انطوت جوانحه من نوايا .

والذى يحب لا يعرف الكراهية

والذى يحب الله يحب كل مخلوقات الله ..

وما دام الحب قد تربع فى القلوب ، زالت العداوة والبغضاء .. وأصبحت النفس شفافة لا تضمر لأحد سوءا .. وتأمل للآخرين الخير ..

وقد شغلت رابعة نفسها بحب الله .. ولم تعد مشغولة بسواه

إن الحب هنا جمال داخلى ..

جمال يشعر به من يشعر بالطمأنينة .. طمأنينة القلب بالله.

إنه توافق بين الخارج والداخل ..

مصالحة مع النفس

لا يظهر الإنسان شيئا .. ويخفى شيئا.

باطنه كظاهره

الحب لله يجعل الإنسان

شفافا .. يرى كل ما فى الوجود جميلا

إن الحب يرقى كما يقول الصوفية إلى مرتبة الخله .. والحب ينتهى بالخلة.. ويعنى بالخلة تخلل الحب كل أجزاء الجسم .. تجعل الجسد والقلب والعقل جميعا .. والخلة فى عرف الصوفية مقام رفيع عند الله .. وقد استمدها الصوفية من أن ابراهيم- عليه الصلاة والسلام- كان خليل الرحمن .



مهما يكن من شيء فالذين تحدثوا عن رابعة تحدثوا علي

أنهـا كـونت مـدرسـة الحب الإلهى .. هذا الحب الذى أنسـت به ، وأنست له .. وكان مبتغاها هو الحب الإلهى .. والحب الإلهى هو الجسر إلى رضاء الله .. وإذا رضى الله عن إنسان يهون كل شيء .. فقد كانت تردد :

إنى جـعلتك فى الفـؤاد مـحـدثى

وأبحت جسمى من أراد جـلوسى

فـالجسم منى للجليس مـؤانسى

وحبـيب قلبى فى الفـؤاد أنيـسى

• كرامات رابعة وكرامات الأولياء •

إذا كان للأنبياء معجزات الهدف منها أن يوقن الناس بصدق ما يدعون إليه ، فإن للأولياء كرامات لتثبيت قلوبهم، ومعرفة منازلهم عند الله .

فالمعجزة إذن خاصة بالأنبياء

والكرامة : خاصة بالأولياء.

والكتب التى تتناول حياة أولياء الله الصالحين تمتلىء بهذه الحكايات عن الأولياء .

ورابعة العدوية هى الأخرى تحدث عنها الكثيرون، من الذين تكلموا عنها تكلموا عن هذه الكرامات التى تقترب من الأساطير. وقد تناول فريد الدين العطار الكثير من كرامات رابعة .

وكذلك فعل المناوي (طبقات الأولياء) حيث ساق العديد من هذه الكرامات قالوا عنها الكثير ..

قالوا عنها إن الحيوانات والطيور كانت تلتف حولها ولا تهرب منها . !

وقالوا أن أحد اللصوص أراد سرقة ملابسها، ولكنه لم يستطع الخروج من الباب الذى أغلق دونه، ولم يستطع الخروج إلا بعد أن وضع المسروقات فى مكانها، وسمع هاتفا ينبئه بأن هناك من يحرسها .

وقد وردت روايات كثيرة بينها وبين الحسن البصرى – الذى تشكك كثير من الروايات كما قلنا أنها عاصرته .. بالعديد من هذه الكرامات التى تتفوق عليه في هذا المجال .

مهما يكن من شىء .. فلا شك – أن لها كرامات .. وأولياء الله – لا يعتدون كثيرا بهذه الكرامات ..

وكرامات الأولياء كثيرة .. تناولتها الكتب التى تعرضت لحياة الأولياء .. كأن يحضرون فاكهة الصيف فى الشتاء، وفاكهة الشتاء فى الصيف ، أو يسمعون هاتفا .. يجيب عن استفساراتهم .. أو تستجاب دعواتهم .

والذين يؤكدون هذه الكرامات يستندون إلى ما روى من أخبار عن عمر بن الخطاب– رضى الله عنه–، عندما كان يخطب فى مسجد رسول الله، ورأى بعين بصيرتة حصار الأعداء لجيش (سارية) .. فنادي من فوق منبره :

– يا سارية الجبل .. !

أى طلب من سارية أن يلوذ بالجبل، فسمع سارية صوت أمير المؤمنين .. واستجاب لنصيحته .. واحتمى بالجبل.

والإمام القشيرى يقول إن ظهور الكرامات على الأولياء جائز، والدليل على جوازه أنه أمر موهوم حدوثه في العقل لا يؤدى حصوله إلى رفع أصل من الأصول فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على إيجاده، وإذا وجب كونه مقدورا لله- سبحانه- فلا شىء يمنع جواز حصوله .. وظهور الكرامات علامة صدق من ظهرت عليه فى أحواله . فمن لم يكن صادقا فظهور مثلها عليه لا يجوز، والذى يدل عليه تعريف القديم سبحانه إيمانا حتى نفرق بين من كان صادقا في أحواله وبين من هو مبطل عن طريق الاستدلال أمر موهوم ولا يكون من ذلك إلا باختصاص الولى بما لا يوجد مع المفتري فى دعواه.

وذلك الأمر هو الكرامة التنى أشرنا إليها . ولابد أن تكون هذه الكرامة فعلا ناقضا للعادة فى أيام التكليف ظاهرا على موصوف بالولاية فى معنى تصديقه في حاله .

ويقول القشيرى أيضا :

وتكلم الناس في الفرق بين الكرامات وبين المعجزات من أهل الحق .

فكان الإمام أبو إسحاق الاسفراييني - رحمه الله - يقول المعجزات دلالات صدق الأنبياء، ودليل النبوة لا يوجد على غير النبى. كما أن العقل المحكم لما كان دليلا للعالم فى كونه عالما لم يوجد إلا ممن كان عالما.

وكان يقول : الأولياء لهم كرامات شبه إجابة الدعاء . فأما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا .

وأما الإمام أبو بكر بن فورك - رحمه الله- فكان يقول المعجزات دلالات الصدق، ثم إن ادعى صاحبه النبوة فالمعجزات تدل على صدقه فى مقالته، وإن أشار صاحبها إلى الولاية دلت المعجزة وإن كانت من جنس المعجزات للفرق .

وكان رحمه الله- يقول من الفرق بين المعجزات والكرامات أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها والولى يجب عليه سترها وإخفاءها .

والنبى -صلي الله عليه وسلم- يدعى ذلك ويقطع القول به، والولى لا يدعيه ولا يقطع بكرامته لجواز أن يكون ذلك مكرا.

وقال أوحد فنه القاضى أبو بكر الأشعري- رضى الله عنه :

إن المعجزات تختص بالأنبياء والكرامات تكون للأولياء كما تكون للأنبياء ، ولا تكون للأولياء معجزة لأن شرط المعجزة اقتران

دعـوى النبـوة بهـا.. والمعـجـزة لم تكن مـعـجـزة لعـينهـا، وإنما، كانت معجزة لحصولها على أوصاف كثيرة . فمتى أختل شرط من تلك الشـرائط لا تكون معجزة. وأحد تلك الشرائط دعوى النبوة والولى لا يدعى النبوة

والذى يظهر عليه لا يكون معجزة . وهذا القول الذي تعتمده وتقول به بل تدين به .

فشرائط المعجزات كلها أو أكثرها توجد فى الكرامة إلا هذا الشرط الواحد. والكرامة فعل لا محالة محدث لأن ما كان قديما لم يكن له اختصاص بأحد، وهو ناقض للعادة، وتحصل فى زمان التكليف، وتظهر على عبد تخصيصا له وتفضيلا . وقد تحصل لاختياره ودعائه وقد لا تحصل .

وقد تكون بغير اختياره فى بعض الأوقات .

ولم يأمر الولى بدعاء الخلق إلى نفسه ولو أظهر شيئا من ذلك على من يكون أهلا له لجاز ».

★★★

والإمام القشيرى بعد أن يستوحى الآراء المختلفة حول الكرامة، واختلافها عن معجزات الأنبياء، وحول ضرورة أن يكون للولى كرامة من عدمه، ويسوق بعضا من الكرامات.

وما كتبه الأمام القشيرى وما جمعه عن كرامات الأولياء يستحق التأمل والوقوف عنده طويلا .. لأنه يبرر هذه الكرامات بما جاء فى الكتاب والسنة .!

ونسوق بعضا مما أورده صاحب الرسالة القشيرية :

سمعت أبا حاتم السجستانى يقول سمعت أبا نصر السراج يقول أملى علينا الوجيهى حكاية عن محمد بن يوسف البناء قال كان أبو تراب النخشبى صاحب كرامات فسافرت معه سنة وكان معه أربعون نفسا ثم أصابتنا مرة فاقة فعدل أبو تراب عن الطريق وجاء بعذق موز فتناولنا وفينا شاب فلم يأكل فقال له أبو تراب كل فقال الحال الذى اعتقدته ترك المعلومات وصرت أنت معلومى فلا أصحبك بعد هذا فقال له أبو تراب كن مع ما وقع لك.

وحكى أبو نصر السراج عن أبى يزيد قال : دخل علىّ أبو على السدى وكان أستاذه وبيده جراب فصبها فإذا هي جواهر فقلت من أين لك هذا ؟فقال وافيت واديا ههنا فإذا هو يضىء كالسراج فحملت هذا فقلت فكيف كان وقتك الذى وردت فيه الوادى فقال وقت فترة عن الحال التى كنت فيها.

وقيل لأبي يزيد فلان يمشى فى ليلة إلى مكة فقال الشيطان يمشى في فى ساعة من المشرق إلى المغرب فى لعنة الله . وقيل له

فلان يمشى على الماء ويطير فى الهواء فقال الطير يطير فى الهواء والسمك يمر على الماء.

وقال سهل بن عبد الله أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاقك. سمعت محمد بن أحمد بن محمد التميمى يقول.

سمعت عبد الله بن على الصوفى يقول سمعت ابن سالم يقول سمعت أبى يقول : كان رجل يقال له عبد الرحمن ابن أحمد يصحب سهل بن عبد الله فقال له يوما ربما أتوضأ للصلاة فيسيل الماء بين يدى قضبان ذهب وفضة فقال سهل أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطون خشخاشة ليشتغلوا بها.

سمعت أبا حاتم السجستاني يقول سمعت أبا نصر السراج يقول أخبرنى جعفر بن محمد قال حدثنى الجنيد قال دخلت على السرى يوما فقال لي عصفور كان يجىء فى كل يوم فأفت له الخبز فيأكل من يدى فنزل وقتا من الأوقات فلم يسقط على يدى فتذكرت فى نفسى إيش ما السبب فذكرت أنى أكلت ملحا بأبزار فقلت فى نفسى لا آكل بعدها وأنا تائب منه فسقط على يدى وأكل.

وحكى أبو عمرو الأنماطى قال كنت مع أستاذى فى البادية

فأخذنا المطر فدخلنا مسجدا نستكن فيه وكان السقف يكف فصعدنا السطح ومعنا خشبة نريد إصلاح السقف فقصر الخشب عن الجدار فقال أستاذى مده فمددتها فركبت الحائط من ههنا ومن ههنا

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول سمعت محمد بن أحمد النجار يقول سمعت الرقى يقول سمعت أبا بكر الدقاق يقول كنت مارا في تيه بنى إسرائيل فخطر ببالى أن علم الحقيقة مباين للشريعة فهتف بى هاتف من تحت شجرة كل حقيقة لا تتبعها الشريعة فهى كفر

وقال بعضهم كنت عند خير النساج فجاءه رجل وقال أيها الشيخ رأيتك أمس وقد بعت الغزل بدرهمين فجئت بعدك فحللتهما من طرف إزارك وقد صارت يدى منقبضة علي كفى قال فضحك خير وأومأ ما بيده إلى يدى ففتحها ثم قال امض واشتر بهما لعيالك شيئا ولا تعد لمثله .

وحكى عن أحمد بن محمد السلمي قال دخلت على ذى النون المصرى يوما فرأيت بين يديه طستا من ذهب وحوله الند والعنبر يسجر فقال لى أنت ممن يدخل على الملوك فى حال بسطهم ثم أعطاني درهما فأنفقت منه إلى بلخ.

وحكى عن أبي سعيد الخراز قال كنت مع بعض أسفارى وكان يظهر لى كل ثلاثة أيام شىء فكنت آكله وأستقل به فمضى ثلاثة أيام وقتا من الأوقات ولم يظهر شىء فضعفت وجلست فهتف بى هاتف أيما أحب إليك سبب أو قوة فقلت القوة فقمت من وقتى ومشيت اثنى عشر يوما لم أذق شيئا ولم أضعف. وعن المرتعش قال سمعت الخواص يقول تهت فى البادية أياما فجاء لى شخص وسلم علىّ وقال لى تهت فقلت نعم ألا أدلك على الطريق ومشى بين يدى خطوات ثم غاب عن عينى وإذا أنا على الجادة فبعد ذلك ما تهت ولا أصابنى فى سفر جوع ولا عطش ..

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول سمعت عمر بن يحيى الأردبيلى يقول الرقى يقول سمعت ابن الجلاد يقول لما مات أبى ضحك على المغتسل فلم يجسر أحد يغسله وقالوا إنه حى حتى جاء واحد ممن أقرانه وغسله. وسمعت محمد بن أحمد التميمى يقول سمعت عبد الله بن على يقول سمعت طلحة القصائرى يقول. سمعت المفتاحى صاحب سهل بن عبد الله يقول : كان سهل يصبر على الطعام سبعين يوما وكان إذا أكل ضعف وإذا جاع قوى وكان أبو عبيد البسرى إذا كان أول شهر رمضان يدخل بيتا ويقول لامرأته طينى على الباب وألقى إلىّ كل ليلة من الكوة رغيفا فإذا كان يوم

العيد فتح الباب ودخلت امرأته البيت فإذا بثلاثين رغيفا فى زاوية البيت فلا أكل ولا شرب ولا نام ولا فاتته ركعة من الصلاة.

وقال أبو الحرث الأولاسى مكثت ثلاثين سنة ما يسمع لسانى إلا من سرى ثم تعبرت الحال فمكثت ثلاثين سنة رجلا يسمع سرى إلا من ربى .

حدثنا محمد بن عبد الله الصوفى قال حدثنا أبو الحسن غلام شعوانة قال سمعت على بن سالم يقول : كان سهل بن عبد الله أصابته زمانة فى أخر عمره فكان إذا حضر وقت غالصلاة انتشرت يداه ورجلاه فإذا فرغ من الفرض عاد إلى حال الزمانة.

وحكى عن ابن عمران الواسطى قال انكسرت السفينة وبقيت أنا وامرأتى على لوح وقد ولدت فى تلك الحالة صبية فصاحت بى وقالت لى يقتلنى العطش فقلت هو ذا يرى حالنا فرفعت رأسى فإذا رجل فى الهواء جالس وفى يده سلسلة من ذهب وفيها كوز من ياقوت أحمر وقال هاك اشربا قال فأخذت الكوز وشربنا منه وإذا هو أطيب من المسك وأبرد من الثلج وأحلى من العسل فقلت من أنت رحمك الله؟ فقال عبد لمولاك فقلت بم وصلت إلى هذا؟ فقال تركت هواى لمرضاته فأجلسنى فى الهواء ثم غاب عنى ولم أره.

أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفى قال حدثنا بكران بن

أحمد الجيلى قال سمعت يوسف بن الحسين يقول سمعت ذا النون المصرى يقول : رأيت شابا عند الكعبة يكثر الركوع والسجود فدنوت منه وقلت إنك تكثر الصلاة ! فقال أنتظر الإذن من ربى فى الانصراف قال فرأيت رقعة سقطت عليه مكتوب فيها من العزيز الغفور إلى عبدى الصادق انصرف مغفورا لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. وقال بعضهم كنت بمدينة الرسول- صلي الله عليه وسلم- فى مسجده مع جماعة نتجارى الآيات ورجل ضرير بالقرب منا يسمع فتقدم إلينا وقال أنست بكلامكم اعلموا أنه كان لى صبية وعيال وكنت أخرج إلى البقيع أحتطب فخرجت يوما فرأيت شابا عليه قميص كتان ونعله فى أصبعه فتوهمت أنه تائه فقصدته أسلب ثوبه فقلت له انزع ما عليك فقال سر فى حفظ الله فقلت الثانية والثالثة فقال لابد فقلت لابد فأشار بأصبعيه من بعيد إلى عينى فسقطتا فقلت بالله عليك من أت فقال ابراهيم الخواص

وقال ذى النون المصرى كنت وقتا فى السفينة فسرقت قطيفة فاتهموا بها رجلا فقلت دعوه حتى أرفق به وإذا الشاب نائم في عباءه فأخرج رأسه من العباءة فقال له ذو النون فى ذلك المعنى فقال لي تقول ذلك أقسمت عليك يا رب أن لا تدع واحدا من الحيتان إلا جاء بجوهرة قال فرأينا وجه الماء حيتانا فى أفواههم الجواهر ثم ألقى الفتى نفسه فى البحر ومر إلى الساحل .

وحكى عن إبراهيم الخواص قال دخلت البادية مرة فرأيت نصرانيا على وسطه زنار فسألنى الصحبة فمشينا سبعة أيام فقال يا راهب الحنفية هات ما عندك من الانبساط فقد جعنا فقلت إلهي لا تفضحنى مع هذا الكافر فرأيت طبقا عليه خبز وشواء ورطب وكوز ماء فأكلنا وشربنا ومشينا سبعة أيام ثم بادرت وقلت يا راهب النصارى هات ما عندك فقد انتهت النوبة إليك فاتكأ على عصاه ودعا فإذا بطبقين عليهما أضعاف ما كان على طبقى قال فتحيرت وتغيرت وأبيت أن آكل فألح علىّ فلم أجبه فقال كل فإنى أبشرك ببشارتين إحداهما أنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد آن محمدا رسول الله وحل الزنار والأخرى أني قلت اللهم إن كان لهذا العبد خطر عندك فافتح عليّ بهذا ففتح قال فأكلنا ومشينا وحج وأقمنا بمكة سنة ثم إنه مات ودفن بالبطحاء .

وقال محمد بن المبارك الصورى كنت مع ابراهيم بن أدهم فى طريق بيت المقدس فنزلنا وقت القيلولة تحت شجرة رمان فصلينا ركعات فسمعت صوتا من أصل الرمان يا أبا إسحق أكرمنا بأن تأكل منا شيئآ فطأطأ ابراهيم رأسه فقال ثلاث مرات ثم قال يا محمد كن شفيعا له ليتناول منا شيئا فقلت يا أبا إسحق لقد سمعت فقام وأخذ رمانتين فأكل واحدة وناولني الأخرى فأكلتها

وهي حامضة وكانت شجرة قصيرة فلما رجعنا مررنا بها فإذا هى شجرة عالية ورمانها حلو وهى تثمر فى كل عام مرتين وسموها رمان العابدين ويأوى إلى ظلها العابدون.

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول سمعت محمد بن الفرحان يقول سمعت الجنيد يقول سمعت أبا جعفر الحصاف يقول: حدثنى جابر الرحبى قال أكثر أهل الرحبة علىّ الانكار فى باب الكرامات فركبت السبع يوما فدخلت الرحبة وقلت أين الذين يكذبون أولياء الله قال فكفوا بعد ذلك عنى .

سمعت منصورا المغربى يقول : رأى بعضهم الخضر -عليه السلام- فقال له هل رأيت فوقك أحدا فقال نعم كان عبد الرازق بن همام يروى الأحاديث بالمدينة والناس حوله يستمعون فرأيت شابا بالبعد منهم رأسه على ركبتيه فقلت له هذا عبد الرازق يروى أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فلم لا تسمع منه؟ فقال إنه يروى عن ميت وأنا لست بغائب عن الله- عز وجل- فقلت له إن كنت كما تقول فمن أنا فرفع رأسه وقال أنت أخى أبو العباس الخضر فعلمت أن لله عبادا لم أعرفهم .

وقيل كان لابراهيم بن أدهم صاحب يقال له يحيى يتعبد فى غرفة ليس إليها سلم ولا درج فكان إذا أراد أن يتطهر يجىء إلى

باب الغرفة ويقول لا حول ولا قوة إلا بالله ويمر فى الهواء كأنه طير ثم يتطهر فإذا فرغ يقول لا حول ولا قوة إلا بالله ويعود إلى غرفته.

أخبرنا محمد بن عبد الله الصوفي قال سمعت عمر بن محمد بن أحمد الشيرازى بالبصرة قال سمعت أبا محمد جعفر الحذاء بشيراز قال كنت أتأدب بأبى عمر الاصطخرى فكان إذا خطر لى خاطر أخرج إلى إصطخر فربما عما أتاج إليه من غير أن أسأله وربما سألت فأجابنى ثم شغلت عن الذهاب فكان إذا خطر على سرى مسألة أجابنى من اصطخر فيخاطبنى بما يرد على .

وحكى بعضهم لقد مات فقير فى بيت مظلم فلما أردنا غسله تكلفنا طلب سراج فوقع من كوة ضوء فأضاء البيت فغسلناه فلما فرغنا ذهب الضوء كأنه لم يكن . وعن أدم بن أبى إياس قال كنا بعسقلان وشاب يغشانا ويجالسنا ويتحدث معنا فإذا فرغنا قام إلي الصلاة يصلى قال فودعنى يوما وقال أريد الإسكندرية فخرجت معه وناولته دريهمات فأبى أن يأخذها فألححت عليه فألقى كفا من الرمل فى ركوته واستقى من ماء البحر وقال كله فنظرت فإذا هو سويق بسكر كثير فقال من كان حاله معه مثل هذا يحتاج إلى دراهمك ثم أنشأ يقول :

بحق الهوى يا أهل ودى تفهموا   لسان وجود بالوجود غـــريب
حرام على قلب تعرض للهـوى   يكون لغير الحـق فيه نصيب

ولغيره :

ليس فى القلب والفؤاد جميعا   موضع فارغ يراه الحبيـــب
هو سؤلى ومنيتى وحبيبـــى   وبه ما حييت عيشى يـطيب
وإذا ما السقام حـــل بقلبي   لم أجد غيره لسقمي طبيب

وحكى عن إبراهيم الآجرى قال : جاءنى يهودى يتقاضي علىّ فى دين كان له علىّ وأنا قاعد عند الأتون أوقد تحت الآجر فقال لى اليهودى يا ابراهيم أرنى آية أسلم عليها فقلت له تفعل قال نعم فقلت انزع ثوبك فنزع فلفتته ولففت على ثوبه ثوبى وطرحته في النار ثم دخلت الأتون وأخرجت الثوب من وسط النار وخرجت من الباب الآخر فرذا ثيابي بحالها لم يصبها شىء وثيابه في وسطها صارت حراقة فأسلم اليهودي.

وقيل كان حبيب العجمى يرى بالبصرة يوم التروية ويوم عرفة بعرفات.

سمعت محمد بن عبد الله الصوفى يقول سمعت أحمد بن محمد بن عبد الله الفرغانى يقول : تزوج عباس بن المهتدى امرأة ، فلما كانت ليلة الدخول وقع عليه ندامة فلما أراد الدنو منها زجر

عنها فامتنع من وطئها وخرج فبعد ثلاثة أيام ظهر لها زوج . قال الأستاذ : هذا هو الكرامة على الحقيقة حيث حفظ عليه العلم، وقيل كان الفضيل على جبل من جبال منى، فقال لو أن وليا من أولياء الله -تعالى- أمر هذا الجبل أن يميد لماد قال فتحرك الجبل فقال اسكن لم أردك بهذا فسكن الجبل

وقال عبد الواحد بن يزيد لأبى عاصم البصري كيف صنعت حينا طلبك الحجاج؟ قال كنت فى غرفتى فدقوا علىّ الباب فدخلوا فدفعت بى دفعة فإذا أنا على أبى قبيس بمكة فقال لى عبد الواحد من أين كنت تأكل ؟ قال كانت تصعد إلىّ عجوز كل وقت إفطارعي بالرغيفين اللذين كنت آكلهما بالبصرة فقال عبد الواحد تلك الدنيا أمرها الله - تعالى - أن تخدم أبا عاصم، وقيل كان عامر بن عبد القيس يأخذ عطاءه ولا يستقبله أحد إلا أعطاه شيئآ وكان إذا أتى منزله رمى إليه بالدراهم فيكون بمقدار ما أخذه لم ينقص شيئاً.

سمعت أبا عبد الله الشيرازى يقول سمعت أبا أحمد الكبير يقول سمعت أبا عبد الله بن خفيف يقول سمعت أبا عمر الزجاجى يقول : دخلت على الجنيد وكنت أريد أن أخرج إلى الحج فأعطانى درهما صحيحا فشددته علي مئزرى فلم أدخل منزلا إلا وجدت رفقاء ولم أحتج إلى الدرهم فلما حججت ورجعت إلى بغداد دخلت

على الجنيد فمد يده وقال هات فناولته الدرهم، فقال كيف كان ؟ فقلت كان الحتم نافذا

وحكى عن أبى جعفر الأعور قال : كنت عند ذى النون المصرى فتذاكرنا حديث طاعة الأشياء للأولياء، فقال ذو النون : من الطاعة أن أقول لهذا السرير يدور فى أربع زوايا البيت ثم يرع إلى مكانه فيفعل قال فدار السرير فى أربع زوايا البيت وعاد إلي مكانه وكان هناك شاب فأخذ يبكى حتى مات فى الوقت.

وقيل إن واصلا الأحدب قرأ « وفى السماء رزقكم وما تودعون - فقال رزقى فى السماء وأنا أطلبه في الأرض، والله لاطلبته أبدا فدخل خربة ومكث يومين فلم يظهر عليه شىء فاشتد عليه، فلما كان اليوم الثالث إذا بدخوله من رطب وكان له أخ أحسن منه نية فصار معه فإذا قد صارتا دوخلتين فلم يزل ذلك حالهما حتى فرق بينهما الموت.

وقال بعضهم أشرفت على إبراهيم بن أدهم وهو في بستان يفظه وقد أخذه النوم وإذا حية فى فيها طاقة نرجس تروحه بها،

وقيل كان جماعة مع أيوب السجستاني فى السفر فأعياهم طلب الماء أتسترون فقال أيوب عليّ ما عشت فقالوا نعم فدور دائرة فنبع الماء فشربنا. قال فلما قدموا البصرة أخبر به حماد بن زيد فقال عبد الواحد بن زيد شهدت معه ذلك اليوم.

وقال بكر بن عبد الرحمن كنا مع ذى النون المصرى في البادية فنزلنا تحت شجرة أم غيلان فقلنا ما أطيب هذا الموضع لو كان فيه رطب فتبسم ذو النون وقال أتشتهون الرطب وحرك الشجرة وقال أقسمت عليك بالذى ابتدأك وخلقك شجرة إلا نثرت علينا رطبا جنيا ثم حركها فنثرت رطبا جنيا فأكلنا وشبعنا ثم نمنا فانتبهنا وحركنا الشجرة فنثرت علينا شوكا .

• وتبقى كلمة •

قصة رابعة القيسية أو العدوية هى قصة امرأة وهبت حياتها لله، وتركت بصمات فى الفكر الصوفى والأدب الصوفى .. فالأدب الصوفى ملىء بشعراء الحب للذات العلية ممن آتوا بعدها ..

والفكر الصوفى تأثر بفكرما عن الحب الإلهى، على أساس أن هذا الحب يأخذ بيد صاحبه إلى مجالات لم تكن تخطر له على بال ..

الحب الإلهى فتح للمحبين أفاقا واسعة على أسرار لا يمكن ترجمتها فى كلمات ، بل يحسها هؤلاء المحبون .. فلا شىء بعد الحب الإلهى .

والحب يعنى أن صاحبه قد اقترب من خلال العبادة، وأحس بتلك المواجيد التى لا يصبر عنها إلا إذا عاشها، وربما -أيضا -لا يستطيع أن يجسد أحاسيسه، ومن هنا امتلأت هذه الأشعار ببعض الغموض، بل حتي في مناجاتهم لربهم ليس من

خلال الشعر، بل من خلال النثر نرى هذا الغموض، ومن هنا كان من الصعوبة بمكان الإبحار فى عالم الصوفية ، فبحارهم عميقة، والخوض فيها محفوف بالمخاطر ..

فما أكثر مواجيدهم وما أكثر جذباتهم الروحية فقد أنشأ الصوفية علي حد تعبير الدكتور عبد الوهاب عزام أدبا منثورا ومنظوما ضمنوه فلسفتهم وطريقتهم ورياضتهم ودعاءهم ومناجاتهم، وما يشعران به من العشق والوجد، وما يلوح لهم فى سلوكهم من لمحات إلهية وجذبات روحية، كما ضمنوه أخلاقياتهم وآدابا وأنوار كثيرة تتصل بهذه الأمور وقد شاركوا غيرهم في كثير من الآراء والعواطف والأخلاق والآداب، وامتازوا بعقائد وآراء وعواطف ، كما امتازوا بطريقتهم فى التحقيق والتدقيق والنظر إلى البواطن، ،والقصد إلى الغاية في الأمور الدينية والنفسية التى عالجوها .

وقد أثر عنهم، منذ كانوا فى الجماعة الإسلامية، كلمات ومقالات وأبيات وقصائد تطورت على القرون تطورا بعيدا . وضحوا إلى ما أنشأوا أشعارا أنشأها غيرهم، وقصدوا بها مقاصد تخالف ، ما قصد منشؤها ولم يكن لهم بد من

الاستعانة بالألوان والأشكال التي أبدعها غيرهم لتصوير ما خفى فى سرائرهم ، ودق فى ضمائرهم لاجئين إلى التشبيه والتمثيل والإشارة والرمز .

ويقول أيضا :

وقد نشأت لهم لغة خاصة، واصطلاحات شرحوها فى كتبهم.

ويورد نماذج .. نختار بعضها من كتاب (المواقف) للنِّفرى لتعطينا صورة من هذا الأدب .

موقف الموت

أوقفنى في الموت فرأيت الأعمال كلها سيئات، ورأيت الخوف يتحكم فى الرجاء، ورأيت الفن قد صار نارا ولحق بالنار، ورأيت الفقر خصما يحتج، ورأيت كل شىء لا يقدر على شىء، ورأيت الملك غرورا، ورأيت الملكوت خداعا ، وناديت يا علم فلم يجبني، وناديت يا معرفة فلم تجبنى، ورأيت كل شىء قد أسلمنى، ورأيت كل خليقة قد هربت منى،

وبقيت وحدى، وجاءنى العمل فرأيت فيه الوهم الخفى، والخفي الغابر . فما نفعنى إلا رحمة ربى .

وقال: أين علمك فرأيت النار

وقال لي: أين عملك فرأيت النار

وقال لي: أين معرفتك فرأيت النار

وكشف لى عن معارفه الفردانية فخمدت النار

وقال لى: أنا دليلك فتبت.

وقال لى: أنا معرفتك فنطقت

وقال لى: أنا طالبك فخرجت

موقف الرفق

أوقفنى فى الرفق وقال لى : الزم اليقين تقف أمامى، والزم حسن الظن تسلك محجتي، ومن سلك فى محجتى وصل إلىّ وقال لى : إذا اضطرت فقل بقلبك اليقين تجتمع وتوقن ، وقل بقلبك حسن الظن تحسن الظن .

وقال لى : من أشهدته أشهدت به، ومن عرفته عرفت به، ومن هديته هديت به، ومن دللته دللت به .

وقــال لـي : اليــقين يهــديك إلى الحـق، والحق المنتــهـى، وحــسن الظن يهـديك إلى التـصـديق، والتـصـديق يهـديك إلى اليقين .

وقال لى : حسن الظن طريق من طرق اليقين

وقال لى : إن لم ترنى من وراء الضدين رؤية واحدة لا تعرفنى



وفى مجال الشعر مجالات كثيرة فيما كتبة ابن عربى ، وابن الفارض، وغيرهما .وإذا كان الإيحاء فى عالم الصوفية فيه متعة للروح فإن فى هذه الصوفية مزالق لغموض بعض النصوص التى وردت عن بعضهم .. كما أن التصوف السليم .. وهو البعيد عن التفلسف والشطط ، والذى يلتزم الكتاب والسنة ولا يحيد عنهما هو التصوف الآمن .. الذى يقصد وجه الله دون الدخول فى المحاذير .

ورابعة كانت زاهدة .. حقيقة لا يجاري فيها أحد وإن كانت لها كرامات كما راوها بعض الرواة فلا يوجد شرعا ما يمنع حدوث هذه الكرامات .

ولكن يلاحظ من خلال ما صدر من دراسات وكتب عنها أن هناك مغالاة.. فيكفى إنها زهدت فى الدنيا وما فيها.

ويكفي أنها تفرغت لعبادة ربها . ويكفى أن ما ترنمت به من شعر فى الحب الإلهى لم يكن فيه شطط.

ولكن الرواة حكوا عنها حكايات عجيبة .. منها أن الله أحيا لها الدابة التى تركبها إلي الحج حتى تواصل مسيرتها إليه !

وقالوا إنها خرجت للحج تتقلب على الأرض من البصرة إلى بيت الله الحرام، واستغرقت هذه الرحلة سبعة أعوام !

ولا أعرف لماذا لا تحج كما أمر الله عباده أن يحجوا .. فقد أمر الله - تعالى - الناس أن يحجوا إما علي رواحلهم أو آية وسيلة.

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

وقالوا فيما قالوا إن الكعبة انتقلت من مكانها لتستقبل رابعة.

و.. وغير ذلك من الأمور التى لا يقبلها منطق ولا عقل ولكنها حكايات من وضع الرواة، يحاولون بها وضع هالات من التقديس، وأكاليل من الأساطير حول هذه الزاهدة العابدة .

ومما يروى عنها- أيضا- أنها سألت

- كيف حبك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقالت :

- أى والله إنى لأحبه حبا شديدا ، ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين !!

وهناك رواية أخرى تقول إنها رأت الرسول -عليه الصلاة والسلام -فى رؤيا وسألها

- يا رابعة .. أتحبيننى

قالت : يا رسول الله وهل ثمة من لا يحبك ؟ لكن حبى لله -تعالى- قد ملأ قلبى إلى حد لم يجعل هناك مكانا لمحبة غيره أو كراهيته !

وواضح أن هذه الروايات يظهر فيها التكلف ..

فالرسول- عليه الصلاة والسلام- هو صاحب الرسالة الخالدة .. وهو المثال لكل من يريد طريق الله ..

ولم يبلغ إنسانا فى زهده وشفافية روحه وجهاده مثل ما كان عليه الرسول الخاتم -عليه الصلاة والسلام-، كما أن صاحب الرسالة الخالدة التى يدين بها كل مسلم، فكيف ينسبون إلى رابعة ما يسىء إليها عندما تنشغل عن الرسول نفسه بالحب ..... بحجة أنها كرست كل حياتها لحب الله - تعالى ! !

والرسول- عليه الصلاة والسلام- يقول فى حديث ما معناه

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه ومن الناس أجمعين»



إن الذين نسبوا إليها مثل هذه الأقوال بأن قلبها مشغول بالله دون سواه حتى حب رسول الله- صلى الله عليه وسلم- قد أساءوا إلى سيرتها، لأن حب الرسول -صلى الله عليه وسلم- من حب الله. كما أن طاعة رسول الله من طاعة الله

ونحن حين نقرأ سير الصحابة والتابعين نراهم كانوا أكثر

عبادة لله، ولم يقل أحد منهم إن حبه لله، أو عبادته لله قد أنسته حب رسول الله .

والرسول- عليه الصلاة والسلام-، كان رغم مشاغله الكثيرة بالدعوة، وأمور الدعوة.. من تبليغ للرسالة والجهاد في سبيلها بالغزوات، ويحكم أنه النبى الخاتم الذى ارتفعت مكانته عند ربه إلى مكانة لم يصل إليها نبى أو رسول قبله ، حيث أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، حيث عرج به إلى السموات العلا حيث رأى ما رأى من آيات ربه الكبرى، وحيث فرضت الصلاة فى السماء وهى عماد الاسلام .. وبرسالته الخالدة اهتدى الناس .. الرسول العظيم - عليه الصلاة والسلام - بلغ من الشفافية والروحانية إلى درجة بالغة السمو، فكيف لا يتسع حبه أو ينشغل قلب رابعة عن كل ما عدا الله، والرسول هو رسول الله، وبشريعته التى جاءته وحيا من الله اهتدت رابعة وكل الزهاد والمتصوفين. .

وهذه مناسبة للوقوف قليلا .. وتشير مجرد إشارة.. إصبع من بعيد .. لنري كم كان الرسول عليه- الصلاة والسلام -قمة سابقة فى تواضعه وزهده وعبادته .،

قالت عنه عائشة -رضى الله عنها :

« لم يمتلىء جوف النبى - صلي الله عليه وسلم- شبعا قط، وإنما كان فى أهله لا يسألهم طعاما ولا يتشهَّاه، إن آطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب »

وقالت :

وكان يدخل على أهله فيقول :

- هل عندكم شىء؟

فإن قالوا : نعم أكل .

وإن قالوا : لا ..

قال : إني صائم .

وقالت -أيضا :

«فأول بدعة حدثت بعد رسول الله الشبع، فرسول الله- صلى الله عليه وسلم- لم يشبع ثلاثة أيام تباعا من خبز القمح حتى فارق الدنيا »

وكان -عليه الصلاة والسلام- يقول كما روى ذلك البخاري :

« إن عينىَّ تنامان ، ولا ينام قلبى » .

وقد تحدث عنه أصحابه .. وكيف كانت عبادته لربه ، وكيف كانت معاملته للناس؟ ومما قاله أنس بن مالك ، وقد عرفه عن قرب، لأنه كان خادمه ، نرى أى عظمة تلك التى تنطوى عليها شخصية أعظم رسل الله .

قال أنس بن مالك :

ورسول الله أحسن الناس خلقا، يتلطف مع الصغار، ويحنو عليهم، ويداعبهم، ويعطيهم من قلبه وحنانه كما يعطى الكبار وأكثر.

فقد كان لأخى (أبي عمير) نفير، وكان أخى الطفل قد اصطاده وأخذ يلعب به،

ومات منه فحزن عليه أبو عمير .

ولكن رسول -الله صلى الله عليه وسلم- علم بقصته مع النفير، فكان إذا رآه قال له :

- يا أبا عمير، ما فعل (البلبل) وقال عنه- أيضا :

ورسول الله حسن العشرة مع الناس جميعا، يؤلف الناس ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، فإذا عثر أخذ بيده ورحمه ، وقال :

ارحموا عزيز قوم ذل .

وإن لم يسعه بماله وسعه بخلقه وقال :

« إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم بحسن الخلق »

★★★

وتبلغ عظمة الرسول قمة شاهقة لا يصل إليها أحد .. عندما تتوقف عند هذه القصة التى رواها أنس بن مالك كما رواها الإمام البخارى

« كنت مع النبى -صلى الله عليه وسلم- وعليه برد غليظ الحاشية » .

فجذبه رجل بردائه جذبة شديدة، حتي أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه، ثم قال:

- يا محمد احمل لى على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك، فإنك لا تحمل لى من مالك ، ولا من مال أبيك!!

فسكت- النبى صلى الله عليه وسلم -ثم قال :

- المال مال الله، وأنا عبده، ويقاد منك يا إعرابى ما فعلت بى .

قال الأعرابى : لا

قال النبى صلى الله عليه وسلم : لِمَ؟

قال الإعرابى :

لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة !

فضحك النبى- عليه الصلاة والسلام-، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعيرا وعلى الآخر تمرا »

والحديث عن عظمة الرسول -صلى الله عليه وسلم- لا يكفيها مجلدات . فكيف لا يحب هذا الرسول حبا يملك علي كل ء مؤمن برسالته مجامع قلبه .

والإمام الغزالى يقول :

وقد جعل رسول -الله صلى الله عليه وسلم-. الحب لله من شروط الإيمان فى أخبار كثيرة

إذ قال أبو رزين العقيلى

- يا رسول الله ، ما الإيمان ؟

قال :

- أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما

وفى حديث آخر :

« لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهلة وماله والناس أجمعين »

وفى رواية : ومن نفسه

كيف وقد قال الله تعالى :

﴿قُلْ إن كَانَ آباؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإخْوانُكُمْ وأَزْوَاجُكُمْ وعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ واللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار »

وواضح من كلام الإمام الغزالي اقتران محبة الله، بمحبة رسول الله، كما ورد فى الأحاديث التى ذكرها عن الرسول، واقتران حب الله وحب الرسول فيما جاء من آيات القرآن الكريم .

ونري الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه (أبو بكر الشبلى) .. يتحدث عن حب هذا المتصوف لله، وهذا الحب- أيضا- يقترن بحب رسول الله فيقول:

فإن ثمرة محبة الله -تعالى- هي ما قاله سبحانه عن أوليائه :

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

وهى أيضا أن يجد حلاوة الإيمان . يقول رسول الله- صلى الله عليه وسلم :

ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان:

١- أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما

٢- وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله

٣-وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار

ولقد سمع الناس كثيرا عن عاطفة الحب الإلهى عند السيدة رابعة العدوية - رضى الله عنها ، وسمعوا عن حب الإمام ابن الفارض ، والإمام البرعى.

ونحب أن نضع بجوار هؤلاء شخصية الإمام الشبلى »



كانت رابعة العدوية - رضى الله عنها - محبة لله ورسوله .. وليس من المنطق أن ينسب إليها أنها انشغلت بحب الله عن حب رسول الله -صلى الله عليه وسلم .. فالرسول الأعظم هو الذى عرف من خلاله الزهاد والعباد والمتصوفون حيث يكون الحب لله، وكيف تكون العبادة لله، وكيف يعرف المؤمن طريقه إلى النورالأسنى عن طريق العبادة ومجاهدة الهوى والنفس، والجهاد في سبيل الله. أو على حد تعبير الإمام عبد الحليم محمود- في كتابه عن الشبلى.

وشعار الصوفية على وجه العموم فيما يتعلق بالعلم هو شعار أستاذهم وقدوتهم وحبيبهم رسول الله -صلي الله عليه وسلم -الذى كان شعاره

« رب زدني علما »



رابعة العدوية عابدة جليلة ومحبة لذات الله - جل علاه - كما ورد ذلك مما قالته من أشعار تترنم بها فى حب الذات الإلهية، حبا عنيفا .. ملك عليها جوانب نفسها .

وهذا الحب استقته لا شك مما سمعته وما عرفته من العلماء والزهاد الذين كانت تتردد عليهم ، من أن الطريق السليم لا يخرج عن إطار الشريعة .

وما التجليات التى أتيحت لها، وعرفتها وتذوقتها من خلال عبادتها له- عز وجل، حتى شفت روحها، وارتقت إلى آفاق لا يعرفها إلا الذين يسيرون فى طريق الله .. إلا من خلال هذه المجاهدات التى أخذت بها نفسها .

★★★

إن رابعة العدوية عابدة وزاهدة .. حقيقة لا ينكرها أحد .

ورابعة العدوية استطاعت بمنهجها في العبادة وحبها لله، أن تحفر نهرا عميقا انتهجه بعدها الكثيرون من أهل التصوف فيما تلا عصرها من عصور .

ولكن يجب أن نبعد من سيرتها كل الخرافات والأساطير التى لا تتسم مع سيرتها وحياتها الحقيقية .

ويجب أن ننقى سيرتها مما نسب إليها من أقوال لا

تتسم مع حقيقة حياتها وتعيدها، ونهجها فى حياتها بعد أن أصبح الحب الإلهى هو شغلها الشاغل.

فقد غال الكثيرون

وهم يتحدثون عن الكرامات التى تمت على يديها، أو التي رواها الرواة عنها، وتضخيم هذه الكرامات، مع الاعتراف بأن لأولياء الله كرامات لتثبيت قلوبهم على الطريق ولكن الكثير من أهل التصوف أنفسهم - لا يعتدون بهذه الكرامات، ويخشون الكلام عنها، حتى لا يغترون بأنفسهم، ويجد الشيطان فى هذا منفذا ينفذ إلى أعماقهم .

وكان الشبلى يقول :

« لا تأمن على نفسك وإن مشيت علي الماء حتى تخرج من دار الغرور إلى دار الأمن»

★★★

لقد عاشت رابعة العدوية حياتها .. كما يعيش الناس، وعرفت حياة الترف .. وعرفت الغناء، وتكالبت على الدنيا .. ثم هداها الله إلى طريق النور فسلكته ، ونسيت طريق الغواية، وتابت إلى ربها ، ومس الحب الإلهى شغاف قلبها، فرأت خلال

هذا الحب ما لم يستطع وصفه إلا من عاش مثل هذه الحياة، ورأى ما رأت رابعة، وشهد ما شاهدت ببصيرتها ، فإذا الدنيا لا تساوى عندها جناحى بعوضة وإذا الحياة يجب أن تستغل فى طاعة الله من خلال ما جاء به الإسلام الحنيف، لتكون الحياة جسرا لعالم أروع وأجمل وأخلد .. عالم الخلود وهو الحياة الحقيقية الأبدية، حيث ينعم فيها المقربون إلى ربهم، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر

عاشت رابعة حياتها التى انتهت بالزهد والحب ثم انتقلت إلى أكرم جوار، لتصبح سيرة حياتها قصة تروى لكل الأجيال، عبرة للناس .. وأن ما عند الناس ينفد وما ما عند الله لا ينفد

و .. صدق رسول الله- صلى الله عليه وسلم- عندما قال لعمر بن الخطاب :

يا عمر : كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل

وقد عاشت رابعة - بعد أن تابت إلى ربها وكأنها غريبة أو عابرة سبيل .. فقضت تلك الأيام فى النسك والتعبد .. حتى اطمأنت نفسها وجوارحها إلى ما عند الله .وعندما ما

ودعت الدنيا .. ودعتها وهي موقنة أن حب الله سيرقى بروحها إلى آفاق لم تكن تخطر على بال

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾

صدق الله العظيم

المراجــــع

- القرآن الكريم

- صحيح البخارى

- صحيح مسلم

- وفـيـات الأعـيـان .... ابن خلكان

- عـوارف المعـارف .... السـهـر وردى

- تذكرة الأولياء .... فريد الدين العطار

- الطبقات .... للشعرانى

- إحياء علوم الدين ....الإمام الغزالى

- الرسالة القشيرية ....بد الكريم القشيرى

- مدخل إلى التصوف الإسلامي ....د. أبو الوفا التفتازانى

شهيدة العشق الإلهى ....د. عبد الرحمن بدوى

- رابعة العدوية بين الغناء والبكاء.. د. سعاد علي عبد الرازق

- عروس الزهد رابعة العدوية ....سنية قراعة

-الأدب الصوفى اتجاهاته وخصائصه... د. صابر عبد الدايم

- العصر العباسى الأول ....شوقى ضيف

- فريد الدين العطار .... د. عبد الوهاب عزام

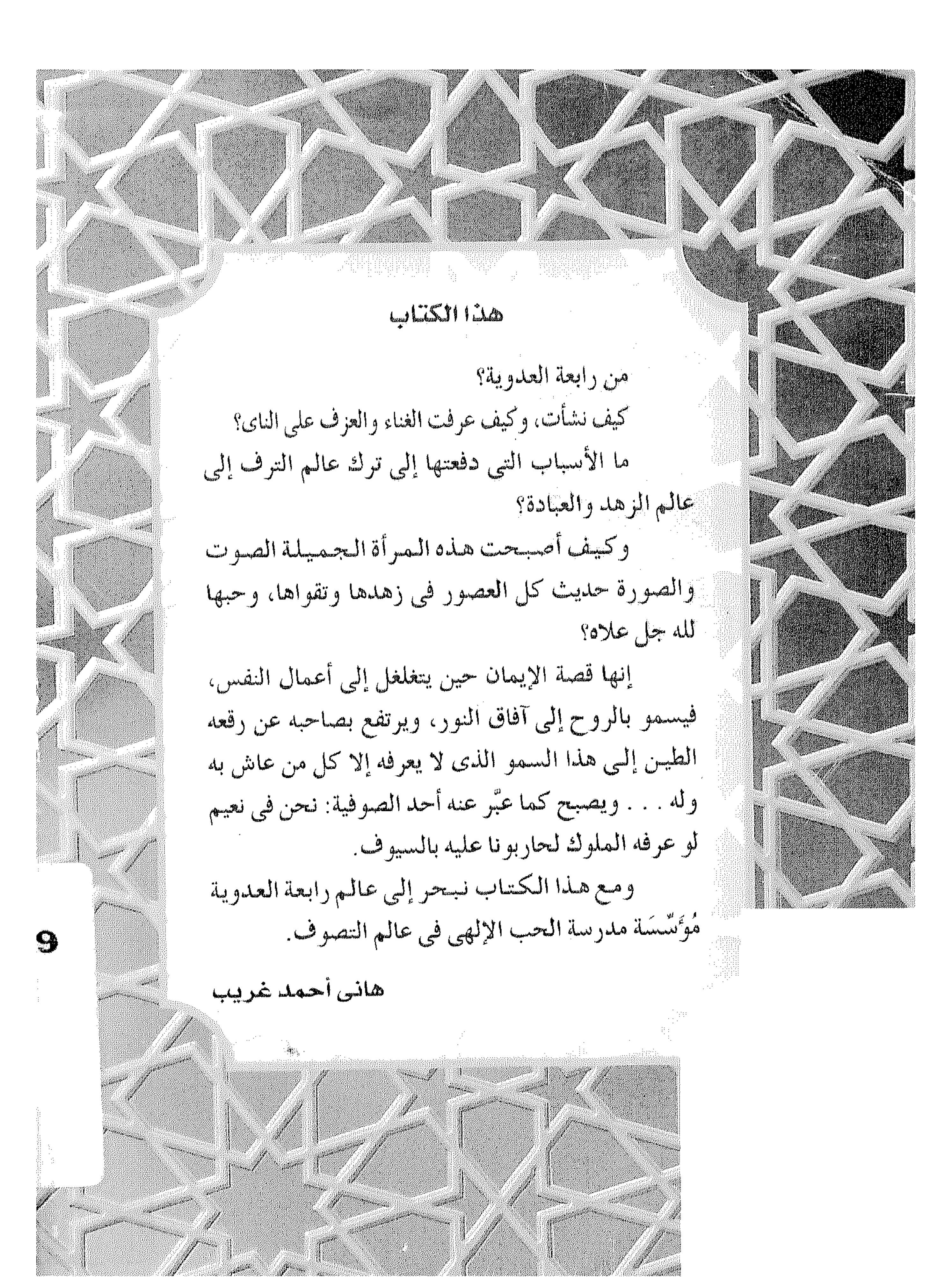
- حياة محمد ....د. محمد حسين هيكل

- أبو بكر الشبلى .... د. عبد الحليم محمود

-الأدب فى التراث الصوفى ..... د. محمد عبد المنعم خفاجى

الفهرس

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين تليفون ٢٥٤٢٠٧٩



هذا الكتاب

من رابعة العدوية؟

كيف نشأت، وكيف عرفت الغناء والعزف على الناى؟

ما الأسباب التى دفعتها إلى ترك عالم الترف إلى عالم الزهد والعبادة؟

وكيف أصبحت هذه المرأة الجميلة الصوت والصورة حديث كل العصور فى زهدها وتقواها، وحبها لله جل علاه؟

إنها قصة الإيمان حين يتغلغل إلى أعمال النفس، فيسمو بالروح إلى آفاق النور، ويرتفع بصاحبه عن رقعة الطين إلى هذا السمو الذى لا يعرفه إلا كل من عاش به وله . . . ويصبح كما عبّر عنه أحد الصوفية: نحن فى نعيم لو عرفه الملوك لحاربونا عليه بالسيوف.

ومع هذا الكتاب نبحر إلى عالم رابعة العدوية مُؤَسِّسَة مدرسة الحب الإلهى فى عالم التصوف.

هانى أحمد غريب

9